بداية الكتاب الأول

في العام ١١٤٠٦ لتجسيد الرب ، تعهد لويس بن الملك لويس ، ملك الأفرنج ، ودوق أكوتين ، للمسيح ، بحمل صليبه (٧) ، وذلك يوم الفصح في فيزلي ، وذلك في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد سبق في أعياد الميلاد المتقدمة ، عندما عقد الملك الورع ذاته مجلسا في بورجيه أن كشف للمرة الأولى لأساقفة المملكة وأقطابها ، الذين كان قد دعاهم عن قصد بأعداد أكبر من المعتاد من أجل تتويجه ، عن سر مكنون في قلبه ، (٨) ، وتحدث أسقف لانجرس الورع في هذه المناسبة ، بصفته الكهنوتية ، عن دمار الرها ، التي كان اسمها القديم إديسا (٩) ، وعن اضطهاد المسيحيين ، وغطرسة المسلمين ، وهكذا أثار الأحزان وسبب النحيب الكبير ، حول هذا الموضوع المحزن ، وحث الجميع آنئذ مع ملكهم على وجوب القتال في سبيل ملك الملوك ، كيما ينقذوا المسيحيين ، وعندها اتقد الحماس في نفس الملك لويس ، وجاش إيمانه في صدره ، فقرر هجر المتعة ، وازدراء المجد الدنيوي ، وهذا مثل أفصح من أية خطبة كانت ، بيد أن ما ورعه الأسقف في خطبته ، لم يحصده الملك على الفور ، ولم يأخذ به حالا (١٠) ، لذلك توجب موعد آخر يكون يوم الفصح المقبل ، في فيزلي ، حيث توجب على الجميع أن يحضروا يوم الأحد قبل أحد القيامة ، وكان على أولئك الذين ألهمهم الرب التطوع أن يحملوا الصليب المجيد في يوم أحد الفصح .

وفي الوقت ذاته ، بعث الملك ، الذي كان جادا في تعهده رسله حول ذلك إلى البابا يوجينيوس في روما (١١) ، وقوبل أولئك الرسل هناك بالترحيب ، وأعيدوا إلى وطنهم مغتبطين يحملون معهم رسائل أحلى من شهد العسل ، إذ كانت تأمر بأداء الطاعة للملك (١٢) ، وعلى الاعتدال في السلاح والملبس ، كما وعدت أولئك الذين نذروا

انفسهم لعبادة المسيح بمحو خطاياهم ، وحماية ازواجهم واطفالهم ، كما تضمنت فقرات أخرى محددة حوت إرشادات البابا المقدسة ، وحكمه وعنايته ، فقد أراد شخصيا أن يمنح البركات الأولية ، من أجل هذا التعهد المقدس ، لكن بما أنه لم يكن قادرا ، ويمنعه في اثناء ذلك استبداد أهل روما وطغيانهم (١٣) ، فقد أوكل تلك المهمة إلى برنارد راعي دير كليرفو المقدس .

وجاء في نهاية الأمر اليوم الذي طال شوقي الى حلوله، وتاق اليه راعي الكنيسة المتمتع بالتفويض البابوي ، وبقدسيته شخصيا مع الحشد الكبير من أولئك الذين وجهت اليهم الدعوة ، وحضر الجميع في الزمان والمكان المحدد ، وعندئذ تسلم الملك والعديد من النبلاء معه إشارة الصليب ، التي كانت قد ارسلت من قبل البابا ، وبما أنه لم يكن في المدينة مكان يتسع لمثل هذا الحشد الكبير من الناس ، فقد أقيمت دكة خشبية كبيرة في حقل خارج المدينة ، حيث يمكن للكاهن التحدث إلى الناس المحتشدين من مكان مرتفع ، وهكذا صعد الى الدكة ، يرافقه الملك الذي كان يرتدي الصليب (١٤) .وعندما فاهت الشفاه السماوية بقطرات من ندى *الكلمات السماوية* ، تعالت أصوات الناس من كل حدب وصوب ، تطالب بـــــــــــــــــــــــــالصلبان (١٥)

وعندما نثر عليهم ماحواه الوعاء المليء بـالصلبان التـي كانت قد أعدت مسبقا ، اختفت جميعا ، وطـولب بـالمزيد ، فـاضطر إلى أن يمزق رداءه إلى صلبان أخذ ينثرها إلى الخارج ، وانهمك بذلك طوال بقائه في جـوار المدينة ، هـذا وانني احجـم هنا عن وصـف جميع المعجزات التي حـدثت هناك في ذلك الوقـت ، والتـي دللت على أن التعهد قد أرضى الرب ، وإنني إذا كتبت عن بضعة منها فقط ، أخشى الايظن بأنها كانت على هذا القدر فقط ، وإذا ما كتبت عنها جميعا ، فانني سأحيد عن هدف موضوعي ، ومهما يكن الحال ، فقد إرفض الجمع أخيرا ، وتفرق الجميع وعادوا مغتبطين ، وبعدما أعلن لهم بانهم سينطلقون مع نهاية السنة (١٦) .

وسارع الاب برنارد ، الذي كان يحمل في جسده النحيل الهش روحا وقادة ، مع ان جسده كاد الا يكون حيا ، هرع للتبشير في كل مكان ، وسرعان ماتزايد عدد اولئك الذين اقبلوا يحملون الصليب الى حد لايحصى (١٧) . وشعر الملك بانه قد حقق امنيته في نشر الايمان ، لذلك بعث برسله إلى الملك روجر في ابوليا ، ليوصل خطته إلى الجيش الكبير الذي كان قيد الجمع ، واستجاب روجر لرغبته بحماسة فائقة على كافة الاصعدة ، زد على هذا انه بعث بنبلاء تعهدوا بتموين المملكة بالاغذية ، وبتامين النقل عن طريق البحر ، وكل الحاجيات الاخرى ، ووعد بأن يمضي هو او ولده مع الرحلة (١٨)

وبعث الملك لويس برسالة أيضا الى امبراطور القسطنطينية الذي أتجاهل عن عمد اسمه ولا اذكره لانه لم يسجل في « كتاب الحياة » (١٩) . ودون الامبراطور على وثيقة طويلة من « ورق البردي » اطراء يفوق كل حد ، واطلق على ملكنا صفة « الصديق المقدس ، والاخ » ، وقدم الكثير من الوعود التي لم يبر بها (٢٠) ، وزيادة على هذه الامور ، فقد طلب لويس في وقت اخر من ملكي الالمان (٢١) والهنغاريين (٢٢) تأمين حقوق التسويق والمرور في اراضيهما أيضا ، وتسلم منهما مبعوثين ورسائل تضمنت تلبية طلباته ، وعليه فقد انخرط العديد من أمراء تلك البلدان ونبلائها في الحملة الصليبية ، مدفوعين لذلك بمثله وحانين حذوة فيما يتعلق بها .

وهكذا فقد سار كل شيء على ما يرام ، وفي الوقت ذاته طارت الاخبار ، وانتشرت فعبرت الى انكلترا (٢٣) ، كما تسللت الى الاطراف البعيدة من جزر أخرى ، وأعد الناس الذين كانوا يقطنون على طول الساحل ، والذين كان عليهم أن يزحفوا مع الملك بحرا ، قواربهم .

والآن وقد نظم الملك لويس مملكته بشكل جيد ، وتفحص كل

شيء ، وحينما ضمن السلام في المستقبل لرعيته ، وتجمع الرسل من مختلف البلدان في باريس ، وكانوا هناك جميعا عندما عاد ، فقدموا رسائل الامبراطور ، وأوامر الأمراء النبلاء ، ووعدوا جميعا شفويا وكتابيا أن يستجيبوا لمطاليبه .

وملك الملك لويس حرية اختيار رجل يعهد إليه بالشؤون المالية ، لكن كما جرت عادته واعتاد أن يعمل آثر أن يشاور جميع الذين كانوا يتعاونون معه ، ولهذا دعا الجميع إلى عقد اجتماع في إتامب يوم أحد القيامة (٢٤) ، ليقرروا جميعا ما سيقومون به ، ويتحملون وزره معا ، ولقد كان المندوبون حكماء وعقلاء في تقريراتهم بقدر سرعتهم في قدومهم إلى الاجتماع ، وعندما التقى حشد القساوسة والنبلاء ، الذي كان كبيرا بقدر ما كان مشهورا ، والتأم جمعه في الوقت المعين والمكان المحدد ، قام فيهم ، القديس برنارد ، المذكور من قبل ، والمبينة فضائله وصفاته ، وأخبرهم بما تم إنجازه مما جعل المجتمعين يسرون ، وخاصة بعدما علموا بأنه عاد لتوه من ألمانيا ، عقب إقناعه ملك تلك البلاد والنبلاء فيها بالانضمام إلى الجند حملة صليب المسيح (٢٥) ، وبعد هذا تليت الرسائل القادمة من مختلف البلدان ، وأصغي إلى كلمات الرسل ، واستمرت هذه الأعمال حتى المساء ، وهكذا انقضى يوم ممتع مليء بالنشاط ، وتركت بقية المسائل ، وأجلت الأعمال إلى اليوم التالي ، وعندما جاء ذلك اليوم ، كان لطيفا ، لابل مبهجا ، فقد وجد بين المجتمعين رجال قالوا أن البيزنطيين رجال خداع ومكر وغش ، وهذا ما قرؤوه عنهم أو خبروه بالتجربة ، لكن الملك ورجاله الذين كانوا لايخشون قوة أمة من الأمم ما كانوا ليتملكهم الرعب والمخاوف من بعض الخداع والمكر ، ونظرا لحكمتهم وشجاعتهم العالية وإيمانهم بأن مامن قوة يمكنها أن تقف في وجه إرادة الرب ، ولأنهم اختاروا أن يموتوا ، فقد عزموا على ركوب الطريق الذي يمر بالأراضي الاغريقية (البيزنطية) (٢٦) ، وهكذا انقضى اليوم الثاني دون تأجيل شيء من الأعمال والقضايا ، وعند ذلك انصرف النبلاء رسل الملك روجر جزعين خائفين ، الأسى يكوي قلوبهم ، معربين بكل

وضوح عن حبهم لسيدهم ، وتنبأوا لنا بمكر وخديعة الأغريق ، الأمر الذي خبرناه وعانينا منه فعلا فيما بعد ، وليس في هذا ما يدعو للغرابة ، لأن روجر الملك الحكيم والقادر ، قد آثر أعمال ملكنا ، وفضل كل واحد جاء من الجزء الذي ننتمي له من العالم ، وكان من محبي الفرنجة .

وأخيرا بعد صلاة الشكر ، وترديد الثالوث المقدس ، مضى اليوم الثالث ، وبعد تضرع وصلاة للروح القدس (لعلهم أدوا ذلك القداس بالطريقة نفسها في اليوم السابق) أقيم قداس من قبل الكاهن المقدس ، وتواصل الاجتماع مع بحث مسألة رعاية المملكة ، والآن بعد أن حد الملك من سلطاته خشية من الرب ، كما كانت عادته ، منح أساقفة الكنيسة ، ونبلاء المملكة امتياز الانتخاب ، فمضوا إلى عقد الاستشارة ، وبعد أن كانوا قد اختاروا الطريق الأفضل للعمل بعد تأخر طفيف ، وبينما كانوا في طريق عودتهم بقيادة الكاهن المقدس ، قال لهم هذا الأخير : « يارب هو ذا هنا سيفان ، فقال لهم : يكفي » (٢٧) ، مشيرا إليكم أيها الأب سوكر مع كونت نيفر ، ولعل ذلك كان قد أدخل السرور لقلب كل واحد ، لو كان قد أبهج الكونت فقط ، لكنه كان قد نذر نفسه لشر تيروز ، وبر بوعده بعد ذلك بفترة وجيزة ، ولم يكن رده عنه ممكنا لا بدعوات الملك المطولة ، أو بصلوات الآخرين جميعا (٢٨) ، وهكذا ألقي على كاهلكم وحدكم (٢٩) العبء المعين للاثنين ، وتحملتموه وحدكم بسلام لا يتخلله كدر ، واعتبرت عبء المسيح (٣٠) السهل ، وفي الوقت ذاته حدد يوم بينتيكوست للرحيل ، وواحد في أوكتيف (٣١) لمقابلة الأمير المتواضع والمشهور في متز .

وبعد هذا ، وحيث لم تنتقص البركة أو الفضل أتى يوجينيوس الحبر الروماني الأعظم ، واحتفل بعيد الفصح في كنيسة القديس دينس احتفالا لائقا ، واجتمع العديد من الناس سوية بسبب مضاعفة الروعة ، أي وجود الملك والأب الرسولي (البابا)

باعتبارهم حجاجا ، وأكثر من ذلك أكد البابا على الترتيبات التي كانت مرضية ، وأصلح العديد من الأمور غير النظامية ، بينما كان ينتظر وصول الملك ، وفي ذلك العام جاء موعد سوق القديس دينس الموسمي نهار الأربعاء بعد بينتيكوست (٣٢) ، لذلك فإن كافة الجماهير الكبيرة التي ذهبت إلى السوق الموسمي اقتربت من الملك ، وعلى مرأى من جميع الحضور ، طلب من القديس دينس راية الحرب ، واستأذن بالرحيل (وهذا ماكانت عليه دائما عادة ملوكنا المنتصرين) فأثار النحيب الكبير ، وحظي بمباركة كل واحد من أعماق قلبه (٣٣) .

وعند حلول ساعة الانطلاق (٣٤) ، قام بشيء يستحق الثناء ، ذلك أن قلة من الناس ، لابل ربما مامن أحد سواه يمكنه أن يقوم بما قام به ، ذلك أنه بعدما زار بعض الرهبان في باريس ، أثر مغادرة المدينة عن طريق حي المجذومين ، وهناك رأيته بنفسي (٣٥) يدخل مع اثنتين من مرافقيه فقط ، ويترك والدته (٣٦) وزوجته (٣٧) وعدد كبير لايحصى من الآخرين إلى دير القديس دينس ، وعندما وصل الملك وجد البابا ورهبان الكنيسة ، وراعي دير القديس دينس هناك مجتمعين سوية ، وعند دخوله سجد على الأرض بكل تواضع وخشوع أمام سيده وحاميه القديس ، وفي الحقيقة فتح البابا والراعي الباب الذهبي الصغير ، ثم سحبا المدخر الفضي قليلا ، حتى يزداد الملك شوقا وإثارة بمشاهدة ذخيرة بقايا من كان يقدس روحه ، ويقبلها (٣٨) ، وعندئذ قام بعدما تناول الراية من على المذبح (٣٩) ، وحالما تلقى مزودة الحج وبركة البابا ، فانسحب من بين الجمهور إلى مكان إقامة الرهبان ، فلم تتمكن الحشود وزوجة الملك ووالدته الذين انهمرت أعينهم جميعا بالدموع ، ثم بسبب شدة الحرارة ، تحمل التأخير ، بيد أن إيقاف الأسى والنحيب الذي حدث آنذاك كان من الجنون بمكان ، كما كان مستحيلا ، وفي ذلك اليوم تناول الملك ولفيف من حاشيته طعام العشاء في القاعة الخاصة مع

- ٢٩٧٨ -

الاخوة الرهبان ، وبعد تلقي قبلة السلام من الجميع ، وغادر ترافقه الدموع والصلوات (٤٠) .

آخر الكتاب الأول

obeikandl.com

بداية الكتاب الثاني

ان الثرثرة المتطرفة مرهقة دائما للانسان المشغول ، وهكذا فانني اخشى بأن تكون روايتي قد مضت ابعد من اللازم دون أن اترك لنفسي متسعا للتنفس ، انني التمس منك ايها الاب أن تغفر لي هذا العجز ، فلقد كنت منهمكا في قضايا مفرحة ، فعندما كتبت العبارات المتعلقة بأرض وطني ، وعندما شرعت اتذكر شؤونه ، أخذت بلا شعور أستعيد ذكريات ماكنت قد رأيته من السعادة في وقت مضى منذ زمن بعيد ، فالانسان عندما يستعيد الذكريات الحلوة لايشعر بالتعب ، وعلى كل حال فإنني أوقف الان نفسي في هذه البداية الجديدة على تقلد مهام صعبة ، عازما في شروحي واوصافي على الدخول الى بلدان غريبة ، وذلك تماما كما فعلنا هذا بالواقع ، وسأتوصل تباعا الى خلاصات أسرع الصعوبات التي نجمت عن ذلك .

بعد مغادرة الملك المبجل لكنيسة القديس دينس ، لم يفعل شيئا يستحق التذكر في مملكته ، اللهم الا اذا كنت ترغب في رواية خبر حقيقة تعيينه رئيس اساقفة رايم شريكا لك في ادارة المملكة (٤١) ، ولست ادري فيما اذا كان يتعين علي أن أترك الكونت راؤول خارج روايتنا (لأنه كان في ذلك الحين محروما كنسيا) (٤٢) ذلك انه اضيف اليكما بمثابة مشرف ثالث ، لكونكما انتما الاثنين تنتقصان لسيف مؤقت حيث ان « الخيط المثلوث لاينقطع ابدا » (٤٣) .

لذا دعنا نتوجه بحديثنا نحو متز حيث كان هناك تجمعنا ، وبالرغم من أن الملك لم يجد هناك شيئا يخصه بموجب حق السيطرة السلطوية ، فقد وجد الجميع رعية له بشكل طوعي كما كانت عليه الحال تماما في فيردون ، وهكذا بعد أن خيم خارج

المدينة ، انتظر الجيش بضعة أيام حتى يصل ، فأصدر القوانين والاوامر اللازمة لضمان السلام والمتطلبات الأخرى أثناء الرحلة ، وأكدها القادة بإقسامهم اليمين ، لكن بما أنهم لم يحافظوا على عهودهم ويراعوها كما ينبغي ، فأنا بدوري لم أحافظ على ذكرهم وأخبارهم ، وأرسل أمامه من ميتز الى ووفر الرجلين الحصيفين المتدينين وهما : ألفيسوس أسقف أراس (٤٤) ، وليو رئيس كنيسة القديس سان بيرتن (٤٥) من أجل إعداد الوسائل الجيش لعبور نهر الراين ، وقد قاما بمهمتهما على الوجه الأكمل ، حيث جمعا اسطولا من جميع الجهات ، وكان حجم ذلك الاسطول من العظم بمكان حيث لم يعد الجيش بحاجة الى جسر .

واستقبل الناس ورجال الدين في وورمز الملك بحفاوة بالغة في يوم عيد القديسين بطرس (٤٦) وبولس ، وهنا شاهدنا للمرة الاولى الغطرسة الجذونية لشعبنا ، لأن الجيش عبر الراين ، وعندما وجد مرجا مترامي الأطراف ، قرر الملك انتظار صاحب القداسة أسقف ليزكس ورجاله النورمانديين والانكليز (٤٧) .

وأتتنا من المدينة مؤن فائضة عن طريق النهر ، وهناك قامت تجارة متواصلة بين السكان المحليين وشعبنا ، لكن مالبث أن نشب نزاع في نهاية الأمر أدى الى إلقاء الحجاج بالبحارة في عرض النهر ، وما أن شاهد أهالي وورمز هذا حتى اندفعوا بسرعة لحمل السلاح وجرحوا العديد من رجالنا وقتلوا واحدا منهم ، فوقع الحجاج في ارتباك عظيم ، وهب الفقراء الى اشعال النيران التي ألحقت الموت بكل من بعض رجالنا (التجار الاغنياء وصرافي الاموال) وبأهالي البلد ، ومهما يكن الحال ، وبمشيئة الله ، تمكن العقلاء من كلا الجانبين من كبح جماح الحمقى من الطرفين المتصارعين ، ومع ذلك ظل الخوف يعتري قلوب الاهلين ، وبما أنهم كانوا قد نقلوا القوارب عن جانبي النهر فقد أوقفوا التجارة ، غير أن أسقف أراس ، الرجل المتدين ، عبر النهر مع

بعض البارونات ، بعدما وجد قاربا بمشقة ، وهدأ من روع الجمهور ، ثم وعد الأهلين بالأمان ، ومن ثم أعيدت القوارب ، ومن جديد انشغلوا بالتجارة كنهي قبل ، واصبحوا يزودونا بالحاجات الضرورية ، وحتى حينه لزم الناس الانضباط ، وتحقق ذلك هنا للمرة الاولى ، وبما ان كل شيء كان باهظ الثمن بسبب احتشاد الناس وكثرتهم ، فقد تخلى العديد عنا هنا ، ومضوا داخل جبال الالب .

وقوض الملك الخيام ، واستأنف الرحيل ، بعد ان كان قد أرسل أسقف أراس والحاجب (٤٨) وراعي دير سان بيرتن ، أرسلهم أمامه الى راتسبون لمقابلة مبعوثي امبراطور القسطنطينية ، الذين كانوا ينتظرون الملك هناك منذ عدة أيام ، وفي هذه المدينة عبر الجميع نهر الدانوب على جسر جيد جداً ، ووجدوا أسطولا كبيرا تولى نقل أمتعتنا والعديد من رجالنا حتى بلغاريا ، حتى أن بعضهم وضع عربات يجرها حصانان واربعة على ظهر السفينة ، كيما يتم التعويض عن الخسائر التي كان هذا البعض قد تكبدها في أراضي بلغاريا اليباب (٤٩) . وقد وضح بشكل قاطع – من قبل ومن بعد – أن العربات ذات منافع ظاهرية أكثر منها عملية ، وإننا إذ نتطرق الى ذكر هذه الامور إنما نفعل ذلك لنحذر الحجاج فيما بعد ، لانه طالما كان هناك عدد كبير من العربات التي تجرها أربعة خيول ، كان على الجميع أن يتأخروا بنفس الدرجة فيما لو تحطمت إحداها ، وإنما كانوا إذا وجدوا طرقا عديدة سلكوها جميعا في نفس الوقت ، وغالبا ما كانت الخيول تتعرض للاعاقة بسبب انسداد الطرق ، ولهذا السبب كان موت الخيول شائع التكرار ، كما كثرت الشكاوى حول قصر المسافة التي كانت تقطع كل يوم .

واستقبل أهالي راتسبون الملك لويس كما يستقبل الملوك حقا ، لكن بما أنني لا أستطيع أن أعيد تكرار العبارات التي أعرب فيها الناس حوله عن ولائهم من القلوب ، لذا يجب أن أذكر ولمرة واحدة

أن جميع المدن والحصون والبلدان الواقعة على الطريق إلى القسطنطينية قد أبدت للملك ولاء مشرفا بقدر ماوجدت لذلك سبيلا (٥٠) والآن وعلى الرغم من أن الجميع كانوا على حد سواء راغبين في استقباله استقبالا حسنا ، فإنني أقول . « بدرجات متفاوتة لانهم لم تتوفر لديهم جميعا نفس الموارد والامكانات ٠

وبعد أن اقيم المعسكر ، وتم إعداد مقر خاص بالملك ، جرى استدعاء مبعوثي الامبراطور ، وعندما جاءوا بادروا الملك بالتحية ، وسلموا رسائلهم ، ثم وقفوا ينتظرون جوابه ، لانهم اعتادوا أن لايجلسوا مالم يؤمروا بذلك ، وعندما صدرت لهم الاوامر بالجلوس ، أعدوا الكراسي التي كانوا قد أحضروها معهم ، وجلسوا عليها ، وهناك شهدنا ، ماعلمنا بعد أنه عرف بيزنطي ، أي أن رجال الحاشية يلتزمون بالعادة الوقوف بأكملهم عندما يجلس سادتهم ، وبوسع المرء أن يرى شبابا واقفين بدون حركة ورؤوسهم منحنية ونظراتهم موجهة قصدا ، وبصمت الى أسيادهم جاهزين لتلبية الأوامر بمجرد إشارة ، وهم ليس لديهم أردية ، لكن الاثرياء يرتدون ملابس حريرية قصيرة ، ذات أكمام ضيقة ، مخاطة من جميع جوانبها ، مما يتيح لهم حرية الحركة بشكل دائم دونما إعاقة ، كما يفعل الرياضيون (٥١) ويرتدي الفقراء ملابس مخاطة بنفس الطريقة ، ولكن أرخص نوعا .

وبالنسبة لي فإني أجد أن تفسير الوثائق تفسيرا تاما أمرا غير لائق من جهة واحدة ومستحيل من جهة أخرى ، لان الجزء الأول والاكبر منها صيغ بشكل فيه ذل وصغار وتواضع شديد بغية ضمان ارادتنا ونوايانا الطيبة ، ثم لانه يتوجب علي التلفظ بكلمات هي في غاية الرقة تملقا ، لأن كلماتهم لاتنبع من العاطفة ، وهي كلمات لم تكن لتخزي الامبراطور فحسب ، بل حتى المهرج ، ولذا فمن المخجل المرء أن يشغل نفسه بمثل هذه القضايا عندما يسرع متوجها نحو الآخرين ، وإن هذا لمن المستحيل بالنسبة لي ، ثم إن التملقين

الفرنسيين مهما جهدوا لا يمكنهم أن يعادلوا الاغريق حتى ولو رغبوا بذلك .

والآن وبالرغم من أن وجه الملك احمر خجلا من ذلك التملق ، فقد سمح في البداية أن يستمر كل شيء ، غير أنه لم يكن يعلم من أي مصدر أتى هذا الاطراء والمديح ، بيد أنه في نهاية الامر عندما كرر الرسل زياراتهم له في الأراضي الاغريقية ، وبدأوا دائما يتقدمون له بعبارات على هذا النحو ، قلما كان يتحملها ، قال ذات مرة غودفري ذلك الرجل الروحي المتدين ، بعد أن ضاق ذرعا بذلك ، وتراف بحال الملك ، وأزعجته التأخيرات التي سببها المتحدث والمترجم : « أيها الاخوة لاتكرروا عبارات «صاحب المجد» أو « صاحب الطاعة » مشيرين في غالب الأحيان للملك ، فهو يعرف نفسه ، ونحن نعرفه جيدا ، ونوهوا عن رغباتكم بصورة مقتضبة وبحرية أكثر » ومع ذلك فإن المثل القائل :« احذروا الاغريق حتى ولو حملوا معهم الباب » كان دائما معروفا حتى بين صفوف بعض الناس العلمانيين .

وتضمن الجزء الأخير من الرسائل ، والذي كان واضحا تمام الوضوح شرطين : أولهما أن الملك يجب الا يستولي على أية مدينة أو حصن في دولة الامبراطور ، بل على العكس من ذلك ، فإذا ماطرد التركمان من أي مكان كان بالاصل يعود لسيطرة الامبراطور ، عليه أن يعيد ذلك المكان للامبراطور ، وكان من المتوجب أن يثبت هذا الاتفاق بيمين يقسمه النبلاء (٥٢) وقد بدا الشرط الاول لمجلسنا معقولا جدا ، أما فيما يتعلق بالشرط الثاني فقد بدا السؤال حول ممتلكات الامبراطور موضعا للنقاش ، فقد مضى بعضهم الى القول :« بالنسبة الى التركمان ، يترتب عليه أن يحاول استرداد ممتلكاته منهم ، وأن يفعل ذلك إما بالشراء او التفاوض او بالقوة ، ثم لماذا لايجوز له أن يحاول اخذها منا إذا مازلنا نستولي عليها بشكل من الاشكال » ؟ بينما مضى آخرون الى القول : يتوجب أولا أن تحدد ممتلكاته ، وهكذا فإن الصراع في المستقبل لايمكن أن

يثار حول اتفاق أو قول غير محدد ، وفي الوقت ذاته انقضت عدة أيام ، واحتج الاغريق على التأخير ، زاعمين أنهم يخشون من قيام الامبراطور بإحراق الأطعمة وبقية أنواع المؤن وتدمير التحصينات على سبيل الحيطة قائلين : « إنه أنذرنا أنه سيفعل ذلك إذا ما تأخرنا » ثم قالوا : « على أساس الاستخلاص من تأخركم أنكم لم تأتوا لتمروا بسلام ، إنه إذا فعل ذلك لن تجدوا مؤنا كافية على طول طريقكم ، حتى وإن أراد الامبراطور ذاته توفير ذلك لكم » .

وبعد لأي اقسم اخيرا بعض الرجال اليمين لصالح أمن الدولة الاغريقية نيابه عن الملك ، وبيمين مماثلة نيابة عن امبراطورهم تعهد الاغريق واقسموا على تجهيز سوق كافية مناسبة ، وعلى تحويل النقود بأسعار لاغبن فيها ، وذلك بالاضافة الى جميع الامتيازات الأخرى التي بدت ضرورية لنا ، أما الشرط الثاني الذي لم يتوصلوا الى قرار بشأنه ، فقد احتفظوا به الى حين اجتماع صاحبي الجلالة (٥٣) ، وبارحنا بعد هذه المفاوضات واحد من المبعوثين الاغريق واسمه ديمتروس وسافر مسرعا ، بينما بقي الآخر واسمه موروس معنا ، واثر هذا تم اختيار الرجال الذين سيوفدون الى القسطنطينية مع موروس المشار اليه ، والذي أتيت على ذكره آنفا (لأن الرسائل أشارت الى هذا المطلب) من بين المطالب الأخرى ، وهؤلاء الرجال هم : ألفيوس كونت آراس وبارثو لميو الحاجب ، وأرشيبالد كونت بوربون (٥٤) مع آخرين غيرهم(٥٥) ، وهكذا كلف هؤلاء بالسفارة ، وتحركوا إثر تكليفهم بكل سرعة ، في حين تبعهم الملك بخطى وئيدة حسبما سمح الجمهور المحتشد معه بذلك (٥٦) .

وفي هذا المقام اجد أنه من المفيد جدا القيام بوصف الأعمال الناجحة ، ذلك انها تزود القارىء بنماذج وأمثلة مفيدة ، ثم إن تسمية المدن التي مررنا بها يوضح طريق الرحلة ، ويبين طبيعة الأماكن الموصوفة ، خاصة تلك التي تستدعي الحاجة اتخاذ الحيطة

فيها ، سيما بالنسبة للمؤن ، فمن المفترض وجود حجاج مسافرين دائما الى الديار المقدسة ، ولاشك أنهم سيكونون أكثر حذرا بالاعتماد على خبرتنا التي حصلناها .

حسنا :إن مدن متيز ،ورمز ، ورزبيرغ ، وراتيسبورن ، وباساو ، هي مدن ثرية جدا ، تبتعد كل منها عن الأخرى مسافة ثلاثة أيام(٥٧) ، والمسافة بين آخر هذه المدن وكلوسترنبيرغ هي خمسة أيام ، ومن هناك يوم واحد حتى الحدود الهنغارية ، وتغطي الغابات المناطق الواقعة فيما بين تلك المدن ، وإذا لم تجلب المؤن من المدن الكبيرة ، فهي لايمكنها أن تزود جيشا لجبا بالمؤن ، ومع ذلك فهي تحتوي على كمية من الجداول والينابيع والمروج ، وعندما كنت أعبر تلك الأراضي كنت أظنها تعج بالجبال ، ولكنني الآن ، بالمقارنة مع رومانيا ، أعتبرها مستوية ، فمن جانب واحد تحاط هنغاريا بالماء الموحل ، بينما يفصل بينها وبين بلغاريا نهر صاف ، وفي وسطها يجري نهر دريف الذي تميل احدى ضفتيه بعض الشيء بينما تنحدر الحافة الأخرى انحدارا شديدا ، ذلك أن النهر يفيض في حال هطول مطر خفيف ، وعندما يرفد بمياه المستنقعات والجداول المجاورة ، ويستمر مسير الفيضانات حتى مسافات بعيدة ، وقد سمعنا بأن ذلك النهر كان قد غمر بمياهه بشكل مفاجيء العديد من الألمان الذين سبقونا ، ونحن لم يكن بمقدورنا أن نصل إلى المخيم الذي كانوا يعسكرون به ، ومن أجل عبور النهر كانت لدينا بضعة سفن صغيرة ، وهكذا كان على الخيول أن تسبح ، وبما أنها دخلت النهر من مكان سهل ، فقد خرجت منه في مكان صعب ، وعبرته بالتالي بمنتهى الصعوبة ، ولكن بعون الرب دون خسائر ، ويتخذ ماتبقى من المياه في هذه الأراضي شكل بحيرات ومستنقعات وينابيع (حتى وإن كانت تلك الينابيع من صنع المسافرين ، ذلك انه من السهل اخراج الماء حتى في الصيف بحفر سطح الأرض حفرا خفيفا) باستثناء الدانوب الذي يجري على شكل خط مستقيم ، وتعبره السفن العديدة حتى يصل الى بلدة غران ، وتنتج

هذه الأرض الوفير من الأغذية ، حتى ليقال بأن مبعوثي يوليوس قيصر كانوا قد توطنوا فيها ، وهنا في هذه البقعة أتيح لنا أن نتمتع ببعض امتيازات التسوق كما رغبنا .

واستغرقنا خمسة عشر يوما كيما نعبر هنغاريا ، ثم تراءت لنا على حدود بلغاريا مدينة محصنة كانت تدعى بلغراد البلغار ، وذلك بغية تمييزها عن بلدة هنغارية تحمل الاسم ذاته ، ثم قضينا يوما آخر بعد ذلك وعبرنا احد الأنهار ، ووصلنا الى بلدة برانديزي الصغيرة الفقيرة ، أما ماتبقى من البلاد فمرج تغطيه الغابات والسهوب التي تنموا فيها أعشاب المراعي ، وإذا جاز لنا القول : انها تعج بالكثير من الأشياء التي تنمو بمحض ذاتها ، وتناسب اشياء أخرى ، اللهم إذا توفر المزارعون في المنطقة ، فهي ليست ممتدة على شكل سهل ولاعلى شكل جبال صخرية ، بل إنها تتوضع بين هضاب تناسب زراعة الكرمة والحبوب ، كما أنها تروى من اكثر الينابيع والجداول صفاء ، ذلك أنه لايوجد فيها انهار ، وبسبب ذلك لم نكن بحاجة للقوارب على طول الطريق من هناك حتى القسطنطينية(٥٨) ، وفي اليوم الخامس من المسير كشفت لنا الأرض عن المدينة الاغريقية الأولى ـ على صغرها ـ واسمها نيسا ، وتبعد مدن : نيسا ، وصوفيا ، وفيلبوبولس ، وادريانوبل (أدرنة) مسافة أربعة أيام كل منها عن الأخرى ، وتبعد أدرنة عن القسطنطينية مسافة خمسة أيام ، وتعج السهول الممتدة بين تلك المدن بالعديد من القرى والحصون ، ومختلف أنواع الموارد ، كما توجد على جانبيها يمينا وشمالا جبال تبدو قريبة بحيث يتاح للمرء أن يراها ، وهي ممتدة طويلا ، حيث تحصر فيما بينها سهلا غنيا خلابا .

هذا عن تلك المسائل ، ذلك أنه من الضرورة بمكان أن أروح في قصتي جيئة وذهابا لأنه على الرغم من العديد من الأمور التي تبرز نفسها من اجل الوصف ، يجب الا نخلط بين هذا الاعتبار وغنى

المواضيع ، فالكثير من الاحداث تقع في وقت واحد ، غير أنه ينبغي على المرء أن يراعي تتابعها أثناء معالجتها أو حين التحدث عنها (٥٩) ، فقد تبادر كل من الملك والامبراطور لذهني عندما كنت اكتب عن راتسبون ، ذلك انه على الرغم من ان الملك هو موضوع كتابي الرئيسي ، اجد نفسي مرغما بفعل خبرتيهما المتبادلة ، ان اضمن كتابي بضعة كلمات عن الامبراطور.

كان الملك الألماني قد سبقنا في الزمان والمكان : لقد انطلق ملكنا يوم أحد العنصرة ، في حين انطلق الألماني في أيام عيد الفصح(٦٠) ، وسافر ملكنا من سانت دينس ، والملك الألماني من راتسبون (٦١) وإن حقيقة ذهاب الملك الألماني أولا قد هيأت الفرصة امام ملكنا وسهلت مهمته ، لوجود العديد من الأنهار في المانيا ، فقد وجد ملكنا على طريقه جسورا جديدة قد شيدت فوق الأنهار ، ولهذا لم يتحمل أي عناء او نفقات من جانبه ، وزيادة في الافصاح عن الحقيقة أقول بأن الامبراطور كان قد انطلق بأفضل ما يجب أن تكون عليه التقاليد الامبراطورية على صعيد كل من الاسطول البحري ، والقوات البرية ، وقد نصح بذلك لأن الهنغاريين كانوا أنذاك على عداء معه (٦٢) ، وهكذا فقد دخل هذا الامبراطور الشجاع ، الذي كان يتحلى بمعنويات عالية ، كونه كان بحارا وجندي مشاة (بعد أن رأى أن لديه جيشا كبيرا يرافقه على ظهر الأسطول والفرسان وبقية المراتب الى جانبه يسيرون على محاذاة الشاطىء) الى أراضي هنغاريا كما ينبغي ، وصار سيدا وأميرا.

وكان هناك رجلا يدعى بورس ، ادعى حق ميراث عرش هنغاريا ، وبعث برسائل بهذا الخصوص الى ملكنا في ايتامبس معربا فيها عن شكواه بشكل تام ، ويطلب المقاضاة بتواضع من أجل الانصاف ، وفي طريقه نحو ملكنا إثر رسائله ، قابل الامبراطور الذي كان يثق به ، فعرض الحالة عليه ووعده بأمور كثيرة(٦٣) (وقد أعطاه ــ كما سمعنا ــ الكثير من الاشياء) وتلقى بدوره أملا بكسب حقه ، غير أن ملك هنغاريا ، الذي كان يدرك أن

باستطاعته أن ينتصر بسهولة عن طريق المال (الذهب) أكثر من اعتماده على القوة ، أنفق أموالا طائلة بين صفوف الألمان ، وبذلك نجا من هجومهم عليه (٦٤) ، والآن وبعد أن خدع بورس نفسه بأمل يائس تخفى قدر ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وانتظر مرور ملكنا ، وبخديعة أو أخرى في ذهنه تمكن من الانضمام إلى الفرنج ، وقد قيل بأن أميرين من الفرنجة كانا على علم بذلك ، ولما كان بورس متزوجا من ابنة اخ (أو اخت)امبراطور القسطنطينية ، فقد انضم الى الفرنج بصدق ، وحجة كافية قوية مقبولة من جانب الأميرين إياهما(٦٥) ، وهكذا تمكن من المضي عبر هنغاريا رفقة الجيش الصليبي ، تحت تغطيته وحمايته ، ودون أن يعلم أحد.

وفي الوقت ذاته ، وخشية من ملكنا وخوفا منه ، سعى ملك هنغاريا لنيل رضاه وذلك بارسال المبعوثين والهدايا ، بيد أنه تحاشى عبور الدانوب لمقابلته ، وقد أمل بعقد مؤتمر مع الرجل الذي اثنى على سمعته ، ورغب في الاعتماد عليه (كما أظهرت الأحداث ذلك) ، ولكن بما أنه كان يخشى عبور النهر الى الجانب الذي كنا نشغله ، فقد التمس من الملك بكل تواضع أن يتشرف بالقدوم الى جانبه هو ، واستجاب له الملك ، لسيطرة نزعة التنازل عليه ، وقام بكل يسر وسهولة وتحت وطأة حب الاحسان والتواضع باصطحاب عدد من رجال الاكليروس والنبلاء ولبى رغبته ، وتوجه اليه ، وهكذا أقاما السلام بعد ما قبل كل منهما الآخر ، وتبادلا المجاملات ، وعملا على تقوية أواصر المودة فيما بينهما ، واتفقا على أن يمر الحجاج اعتبار منذ ذلك الحين عبر أراضي هنغاريا بكل أمان ، وبعد أن أنجز ملكنا ذلك غادر هنغاريا تغمره السعادة محملا بالهدايا الملكية والخيول والثياب ، وعزم ملك هنغاريا على أن يزيد من تقديره لملكنا وتشريفه قدر استطاعته ، سيما عندما وجد بورس مع الفرنجة ، لذلك أوفد أناسا من لدنه ليعرضوا عقد معاهدة صداقة وسلام جديدة مع الملك ، ولأن يطلبوا منه بكل تواضع أن يسلم اليه عدوه الذي كان مختبئا بين صفوف الجيش وحدث هذا الأمر كله اثناء الليل ، ومهما يكن من امر ، فإن الملك الذي لم يكن معتادا على

التعامل بمثل هذه الدرجة من الازدواجية ، لم يصدق القصة تصديقا مطلقا ، بيد أنه سمح في نهاية الأمر للمبعوثين الذين كانوا يواصلون تأكيدهم له على وجوده في معسكره ، ويطلبون تعاونه معهم ، سمح لهم بالتفتيش عنه ، وبناء على هذا ، تقدموا والفرح مسيطر عليهم ، بجراة ودون تعقل ، نحو مكان بورس ، مثيرين صخبا كبيرا ، فما كان من بورس الا أن نهض من فراشه بسبب الصخب الذي أقامه أولئك الذين كانوا يبحثون عنه ، فهرب عاريا ، وبذلك فوت عليهم الفرصة ، فعادوا وقد أحبطت جهودهم ، ولم يكن بورس الفار احمقا بأي وجه من الوجوه ، فعندما كان قد غادر ملجأ الخيام في طريقه الى النهر ، قابل فارسا يمتطي صهوة جواد رائع ، فقاتله بشجاعة من اجل الحصان ، فصرخ الفارس وقاوم بشدة ، واستطاع أن ينتصر عليه بصراخه ، أكثر مما فعل بقوته ، لأن الناس سرعان ما ظهروا من كل حدب وصوب ، وقبضوا على بورس ، وكأنما كان من قطاع الطرق ، واقتادوه الى أمام الملك ، بعد أن ضربوه ، ومرغوه بالوحل ، وعري من ثيابه ، فيما عدا ما ستر عورته ، وظن الجميع أنه كان من قطاع الطرق ، ولكن بعد أن ألقى بنفسه على قدمي الملك ، ورغم أنه لم يعد يكن يعرف لغتنا ، كما أنه لم يكن لدى الملك مترجم ، فقد استطعنا بعد أن خلط كلمات من لغته بعضها ببعض ، وبعد تكرار اسمه استطعنا أن نكشف عن هويته ، فكسي بالثياب بشكل لائق ، واحتفظ به حتى اليوم التالي.

وعندها ، ونتيجة لمعرفته السابقة ببورس ، وخشية منه ، تمكن الملك الهنغاري ، الذي كان قد نصب خيامه على مقربة منا ، تمكن على الفور من معرفة ما حدث ، لأنه كان على صلة وثيقة بنا ، ولأنه كان فضوليا بسبب قلقه ، لذلك سارع فطالب الملك بتسليمه بورس ، وذلك كما يطلب صديق من صديق حاجته ، ملوحا بأن تسليمه اليه كان الزاميا بحكم معاهدة الصداقة فيما بينه وبين الملك ، وقدم بالمقابل وعودا عديدة ، كان من الصعب تصديقها ، كما أثار في نفس الوقت قلق النبلاء وحرك أفكارهم ، وذلك بحضوره

- ٢٩٩٠ -

وبكثرة هداياه ، ولكن لا الالحاح في التوسل ، ولا هداياه مكناه من تحقيق مطلبه من قبل الملك ، قبل أن تتخذ محكمة البلاط قرارها ، وأعلن ملكنا أن ملك هنغاريا كان صديقه ، ومع ذلك كان عليه ألا يطلب من الملك القيام بأي عمل كان من شأنه الاساءة الى الحج ، والتأم بعد ذلك مجلس الاكليروس والنبلاء ، وتم فحص القضية ، وبعد التدقيق ، تقرر أنه يجب على الملك لويس المحافظة على السلام مع الملك الهنغاري ، وأن يحافظ في نفس الوقت على حياة النبيل (بورس) حتى وإن كان أسيره ، لأنه سيكون من الجريمة بمكان أن يودي بحياة انسان ، ويرسله للموت دونما سبب وجيه ، وعليه ايضا أن لا يخل بالمعاهدة مع صديقه ، وأدى هذا الى زعزعة ثقة ملك هنغاريا ، ولم يعد يثق بنا ، ويأمن على نفسه بجوارنا ، ولهذا غادر جوارنا وابتعد عنا ممتعضا ، وسعى نحو أمنه وأمانه بعيدا عنا ، والتجأ الى مكان قصي في مملكته ، وقام ملكنا بالاحتفاظ ببورس ، واخرجه من هنغاريا كما يقتضي الشرف منه.

نهاية الكتاب الثاني

بداية الكتاب الثالث

وهكذا شغلنا بهذه المسألة ، وحتى هذا الحد لم نصب بأذى من جراء سوء نية الرجال ، كما أننا لم نخف من الأخطار الناجمة عن حنكة الرجال من ذوي البراعة ، وعلى أية حال ، فقد حدث أنه منذ دخولنا الى بلغاريا ، وهي أرض تعود للأغريق ، وضعت شجاعتنا على المحك ، كما أن عواطفنا قد أثيرت ، وبينما كنا على وشك دخول الجزء غير المسكون منها ، زودنا أنفسنا في بلدة برانديزي الفقيرة بامدادات كانت هنغاريا قد قدمت معظمها عن طريق الدانوب ، وهناك كان الاسطول الذي أحضره الألمان وتخلوا عنه ، وكان كبيرا الى درجة أنه زود الأهلين لمدة طويلة بمواد البناء والحطب للوقود ، وقد أخذ رجالنا الأنواع الصغيرة من القوارب ، وبعد عبور النهر أحضروا الأمدادت من احدى القلاع الهنغارية التي لم تكن تبعد كثيرا ، وهنا واجهنا لأول مرة النقود النحاسية (٦٦) (ستاميناي) لكننا لم نسر بذلك ، لأننا دفعنا خمسة « ديناري » لقاء القطعة الواحدة منها ، أو بالحري خسرنا درجة واحدة من اثنتي عشرة من كل سولدي (٦٧) ، وبعد الدخول الى اراضيهم ، نكث الاغريق بوعودهم ، لأنه يجب أن نتذكر ما قيل من قبل ، أي أن المبعوثين كانوا قد تعهدوا بعدما أقسموا اليمين عن امبراطورهم ، بأن يهيئوا لنا سوقا مناسبة لتبديل النقود (٦٨) وعلى كل حال عبرنا الأرض المقفرة ، ودخلنا المنطقة المتناهية الجمال والغنى ، التي يتواصل امتدادها دون انقطاع حتى القسطنطينية ، وهنا بدأت الأخطار تواجهنا للمرة الأولى ، وليلاحظ هنا أن البلدان التي مررنا بها ، وباعتنا الامدادات بشكل صحيح ، وجدتنا قوما مسالمين الى أبعد الحدود ، ومع هذا وعلى الرغم من كل شيء ، قام الاغريق باغلاق ابواب مدنهم وحصونهم في وجوهنا ، وعرضوا أوانيهم وسلعهم من

فوق الأسوار ، وكانوا يدلونها بحبال ، ولهذا فإن الأطعمة التي عرضت علينا بهذه الوسيلة لم تكن كافية لحشدنا الكبير لذلك عمد الحجاج الجائعون ، وقد وجدوا أنفسهم وسط بحر من الخيرات ، عمدوا الى السلب والنهب ، لأنهم لم يعد بإمكانهم تحمل هذا القدر من الشح والحرمان.

وقد مضى البعض الى الاعتقاد بأن هذه الحالة كانت نتيجة لسوء تصرف الألمان الذين كانوا قد سبقونا ، لأنهم كانوا يقومون بنهب كل شيء(٦٩) ، ولقد شاهدنا بأنهم كانوا قد حرقوا بعض المستوطنات خارج المدن ، ونذكر على سبيل المثال خبر الحدث التالي ونقف عنده ونحن نشعر بالأسى: كانت هناك مستوطنة جميلة واقعة خارج أسوار مدينة فيليوبولس ، يسكنها الأثينيون ، الذين كانوا يبيعون الكثير من الامدادات للمسافرين ، وعندما استقر الألمان في حانة المستوطنة ، ساق سوء الحظ مهرجا ليدخلها ، وبالرغم من أنه كان يجهل لغتهم ، فقد جلس ، ودفع بعض المال ، واحتسى الشراب ، وبعدما سكر طويلا ، أخرج من جيبه أفعى كان قد سحرها ، ثم وضعها على رأس قدح كان قد ركزه على الأرض ، ثم انهمك في المزيد من أعمال التهريج والعربدة ، وسط أناس كان يجهل لغتهم وعاداتهم ، وسرعان ما نهض الألمان وكأنهم قد شاهدوا شيطانا ،فألقوا القبض على المهرج ومزقوه إربا إربا ، وعزوا جريمة قتل الرجل الى الجميع وأعلنوا بأن الاغريق أرادوا أن يدسوا اليهم السم ، وعجت المدينة بالفوضى في ضواحيها وانطلق الحاكم مع لفيف من رجاله خارج الأسوار وهم عزل من السلاح ، ولكن باندفاع ، بغية تهدئة الجمهور الهائج ، وما أن رأى الألمان ذلك ، وأعينهم تشع بالغضب ـ بعد أن أخذت الخمرة من رؤوسهم كل مأخذ ـ ورأوا الناس يندفعون من كل حدب وصوب ، ولم تكن المشكلة هي هل يحمل الناس سلاحهم ، بل في اندفاعهم الشديد ، انقض الألمان على الذين اقتربوا منهم ، لأنهم خيل اليهم أنهم قدموا للانتقام لجريمة القتل ، وهنا عاد الاغريق زرافات ووحدانا الى المدينة ، فأخذوا أسلحتهم ، وحملوا قسيهم

(لأنها كانت سلاحهم الرئيسي) واندفعوا على الفور نحو الألمان ، فقتلوا كل من صادفوه ، وجرحوا من حاول الفرار ، ولم يتوقفوا حتى طردوا جميع الألمان من داخل المستوطنة ، ولقي العديد من الألمان حتفهم هناك ، سيما أولئك الذين كانوا قد التجؤوا الى الخانات ، لكي يحموا أموالهم في الكهوف ، وعندما استرد أولئك الذين نجوا رباطة جأشهم ، حملوا السلاح ثانية ، وتجمعوا لينتقموا للعار الذي نزل بهم ولمذبحة رفاقهم ، وقاموا بحرق كل شيء تقريبا كان خارج الأسوار.

وفي الحقيقة لم يكن الألمان يمكن احتمالهم حتى من قبلنا ، ففي احدى المناسبات ـ على سبيل المثال ـ ذهب بعض رجالنا الذين رغبوا في الابتعاد عن ضغط الجمهور حول الملك ، وقطنوا بالقرب منهم ، وحدث أن مضت كلتا المجموعتين الى السوق ، غير أن الألمان لم يسمحوا للفرنجة بشراء أي شيء الا بعدما حصلوا هم انفسهم على كل ما ابتغوه ، ونشأ عن هذا الوضع نزاع ، أو بالأحرى شجار ، لانه عندما يتهم شخص شخصا آخر بصوت جهوري دون أن يفهمه ، يحدث شجار ، وبناء على ذلك ، وبعد تبادل الكلمات ، رجع الفرنجة من السوق بمؤنهم ، وقام الألمان بالاساءة الى كرامة الفرنجة الذين كانوا بدورهم مسلحين ، قاوموا بروح عالية ، لكن الرب وضع حدا لتلك المواجهة الشريرة ، لأن الليل حل بسرعة ولم يكن بالامكان لا تهدئة غضبهم ولا اخماد ثورتهم خلال تلك الليلة ، لانهم استيقظوا في الصباح ، وهم اكثر مرارة ، بيد أن العقلاء من الرجال بينهم ركعوا أمام الطائشين منهم ، وهدأوا من روع غضبهم بالتواضع والمنطق (٧٠) .

وهكذا أفسد الألمان كل شيء مع تقدمهم ، وعليه فر الاغريق من وجه ملكنا المسالم الذي سار وراءهم ، ومع ذلك فقد استقبله جميع رجال الاكليروس والمحافل الدينية بالتقدير والشرف خارجين من مدينهم يحملون الايقونات والذخائر الاغريقية المقدسة

الأخرى ، وأقام دوق صوفيا (٧١) ، وهو واحد من أقرباء الأمبراطور ـ الذي كان دائما على صلة وثيقة بالملك طوال الرحلة ـ أقام الأمن والسلام للسكان ، ورأى تخصيص جزء من السوق للحجاج ، وقدم خدماته للملك بشرف فيما يتعلق بالمؤن ، الا أن الملك لويس ، الذي لم يبق لنفسه سوى القليل ، في الحقيقة إن كان ابقى شيئا البته ، قسم المبالغ التي كانت بحوزته جميعها ، فأعطى بعضا للفقراء ، وبعضها للأغنياء ، وهكذا تمت المحافظة على السلام من قبله بشكل أكثر حزما ، لأنه كان أقل حاجة ومطالبا ، ويحظى باحترام أكبر مما يحظى به الآخرون ، لكن العديد ممن مضى بعده وممن تبعوه حققوا الكسب الوفير لأنفسهم ، إما من السوق عندما أتيح لهم ذلك او بواسطة السلب لأنهم كانوا يتمتعون بالسلطة التي تخولهم القيام بذلك .

ووصلوا في النهاية الى فيليبوبولس حيث توفي الأسقف الفيسوس ، أسقف أراس ، وذلك أثناء سفره مبعوثا الى القسطنطينية ، وذلك في اليوم الثامن من ايلول ، أي بين عيد القديس بيرتن (٧٣) الذي كان من رهبانه ، ومولد العذراء المبارك (٧٢) ، وبعد أن هده المرض الطويل ، قال والدموع في مقلتيه: (لأن البكاء كان دائما يواسيه) مخاطبا الرهبان والكتاب من حوله : « احتفلوا يا احبائي بعيد القديس بيرتن بما يليق به من مكانة ، ولكن بما أنني لن اكون معكم في الاحتفال بعيد العذراء المبارك ، أرجو أن تتكرموا على بفضل بمقدوركم أن تفعلوه ، وهو تقديم موعد الاحتفال ، فخذوا كتبكم ورتلوا القداس بكامله كما تفعلوا أثناء العيد » ، ولبى الجميع رغبته وسط الدموع ، ورتلوا القداس بكامله ليلا ونهارا ، وكان كلما سمع كلمة « السلام المريمي » أو اسم العذراء ، حتى في لحظة لفظ أنفاسه ، ينهض بجهد ضعيف ، ولكن بورع ، وبعد ذلك أسلم روحه للعذراء ، التي كان قد تذكرها بهذا الخشوع ، ووري جسمه الثرى خارج المدينة بجذاز مشرف أمام مذبح كنيسة القديس جورج ، وفيما بعد عندما قام الملك بزيارة القبر ، حزن على وفاة الفيسوس ، وطاف في موقع المراسم مرة

أخرى مع الرهبان والقساوسة ، ولا بد لي من أن اقول لكم بأنني انا شخصيا أصبت بحمى ، فنمت أولا تحت النعش ، وبعد الدفن فوق القبر ، وفي النهاية شكرت الرب والأسقف المتوفى لأنهما منا علي بالشفاء.

وبعد هذا الاستطراد القصير ، يطيب لي أن أصف كيف سار الألمان الى القسطنطينية ، حتى عبروا البحر ، لأن القصة يجب ان تسرد حسب التسلسل الذي وضعت بموجبه ، وكما كنت أقول فقد تقدموا بجرأة ، لكن ليس بما يكفي من الحكمة ، لأنه على الرغم من انهم وجدوا الكثير من كل شيء في كل مكان من تلك الأرض ، لم يظهروا أي اعتدال ، وقد قتل بعض جنود مشاتهم عندما كان السكر قد أخذ منهم كل مأخذ ، وبما أن جثثهم لم تدفن ، كانت جميع الأشياء قد تلونت ، وهكذا كان الأذى الذي لحق بالفرنج الذين قدموا فيما بعد على يد الاغريق المسلحين ، أقل مما لحق بهم على يد الألمان الموتى ، وعندما أتى الألمان الى أدرنه وجدوا جماعة من الاغريق حاولوا منعهم من المضي الى القسطنطينية ، وذلك باغلاقهم الطريق ، مؤكدين لهم بأن البحر أكثر ضيقا ، والأرض أكثر خصبا في سان جور . سيستوس (٧٥) ، بيد أن امبراطورهم استخف بكل من أولئك الذين أغلقوا الطريق ، والذين نصحوا بعدم المرور على حد سواء (٧٦) وهكذا تابع السير على الطريق الذي تعهد بالسفر عليه ، فوجد في حوالي منتصف طريق رحلته مرجا يرويه جدول صغير ، وهو محاط بالبحر وسمعنا بأنه عندما خيم تلك الليلة هناك والجدول خلفهم وأعلاهم ، انهمر عليهم مطر كان معتدلا فعلا ، غير أنه شكل فيضانا هائلا في الجبال ، فاندفعت مياه الجدول بشكل هائج ، أنزل بهم التلف بدلا من أن يكتفي بالبلل ، وحمل الفيضان الجارف السريع في جريانه الخيام بما كانت تحتويه ، وساقها الى البحر المجاور ، وأغرق الآلاف من الرجال (٧٧)

ونهض الامبراطور والمجموعة التي نجت معه ، وقد تحملوا جميعا هذه المصيبة الكبرى ، إنما والحق يقال ليس بدون

أسى ، لكن مع هذا نهضوا وكأن أي أذى لم يلحق بهم ، وأصبحوا أكثر اقداما ، بفضل فداحة هذا الخطب ، وأتوا الى القسطنطينية (٧٨) ،وقبل المدينة طالعتهم سلسلة من الاسوار تؤثر في النفس ، وضمنها أنواع مختلفة من الموانع ، وفيها العديد من الاقنية والبرك ، كما كان في داخلها عدد كبير من الحفر والكهوف والأنفاق وما يشبه شكل الغابات التي كانت مليئة بالحفر والكهوف ومخابىء الحيوانات ، وفي ذلك المكان بالذات كان هناك بعض المواقع التي كان الاباطرة قد بنوها كمنتجعات ربيعية لهم ، وكانت تدل بوضوح على عظمتهم.

وفي مكان المسرات هذا(٧٩) ، إذا جازت لنا تسميته كذلك ، ثار غضب الامبراطور الالماني ، فدمر عمليا كل شيء امام أعين الاغريق ، ووضع يده على جميع وسائل ملذاتهم من أجل استخدامه الشخصي (٨٠) ، ولما كان القصر الامبراطوري هو المبنى الوحيد الذي يعلو فوق اسوار المدينة ، ويشرف مباشرة فوق ذلك المكان ، تمكن سكانه من خلاله مشاهدة ما كان يجري في ذلك المكان إنما وإن أدخل ذلك المشهد المقيت الأسى والحيرة الى نفس الامبراطور الاغريقي ، فإنه تغلب على عواطفه ، وأرسل مبعوثين يطلبون من الامبراطور الألماني الاجتماع به ، إلا أن الالمان كانوا يخافون ، أو أنهم لم يرغبوا في دخول المدينة ، وكذلك كان شعور الاغريق بالنسبة لمغادرتهم لها ، وما من و حد من الطرفين عدل عن عاداته أو تقاليده ، أو خفف من تعنته تجاه الآخر.

وفي الوقت ذاته قام ملك الفرنجة ، الذي كان دائما يحرص على ممارسة سلطته الملكية بتواضع ، باستعطاف الامبراطور الالماني ، وتوسل اليه بالحاح كي ينتظره عند هذا الذراع(٨١) ، وإن أولئك الذين كانت رغبتهم مشتركة ، وكانوا قد تعهدوا بمهمة مشتركة يجب أن يستخدموا خطة مشتركة ، ومهما يكن من امر ، فقد كان الامبراطور الالماني يسرع بعناد نحو المكان الذي كان

قد انطلق اليه ، وعندما تلقى دليلا للرحلة (أو بالأحرى للتيه والموت) من الامبراطور الاغريقي مضى في طريقه (٨٢) ، وعلى الرغم مما سبق لي ذكره عن حقيقة أن عددا لا يحصى من رجاله كان قد هلك واختفى ، فقد سمعنا من الاغريق الذين واجهوه ورجاله عندما عبروا ، بأنه قد عبر ومعه ٥٥٦ر٩٠٠ رجلا (٨٣) ، وقدم الى نيقوميديا (٨٤) حيث انقسم رجاله الى مجموعات بسبب عدم الاتفاق فيما بينهم (٨٥) ، فقد ذهب الامبراطور الى قونيه ، بينما سار أخوه أوتو أسقف فريزنغ (٨٦) وعدد من النبلاء على الطريق الساحلي ، ولسوف نشير الى مصائبهم الكاسحة ، التي تثير الشفقة وذلك في الزمان والمكان المناسبين ، لكن دعونا نعود في الوقت ذاته الى رجالنا.

وبما أن أسقف متز (٨٧) وأخوه رينالد ، كونت موزسون (٨٨) ، وأسقف تول (٨٩) ، لم يستطيعوا تحمل الألمان ، وكان لديهم جيشهم الكبير العدد ، فقد وقفوا ينتظرون الأمير المسالم ، غير ان الاغريق تصرفوا بكل ما أوتوا من قحة ، فسحبوا الأسواق ، ومنعوا عنهم المؤن ، فأجبروهم على العبور قائلين بأنهم قد عقدوا اتفاقا مع الامبراطور الالماني ، فيه أنهم لن يسمحوا لأي من رجاله بالتخلف بعده ، ولدى سماع المبعوثين الملكيين ــ الذين كانوا حتى حينه ينتظرون في المدينة ــ بذلك ، وكانوا على بينة من صحة الأمر ، وضعوا حدا للنزاع بالوصول الى عقد اتفاق يقضي بوجوب عبور تلك القوات ، وحصولها على أسواق مناسبة ، أثناء انتظارها للآخرين ، وبعدما وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ ، بقي بضعة من الفرنج ــ الذين كانوا قد سبقوا الجيش ــ في المدينة ، وعندها حذرهم الاغريق ، والحوا عليهم بمغادرة المدينة وأن يتبعوا البقية ، وعندما لم يصغوا لهذا ، أرسلوا اليهم بعصبة كبيرة من البشناق والكومانيين ، من أجل طردهم ، وهم من القوم الذين كانوا قد قتلوا العديد من رجالنا بنصب الكمائن ، في الأجزاء غير المسكونة من بلغاريا (٩٠)

فتسلق الفرنجة مرتفعا من الارض ، واتخذوا لانفسهم متاريس من عربات كان يجرها حصانان او اربعة ، وقاوموا وقاتلوا بكل بسالة ، وهناك قاسى رجالنا ، وعانوا الكثير لانهم لم يكن لديهم سوق ، في حين لم يتوقف العدو عن شن الهجمات ضدهم.

ولدى سماع المبعوثين الفرنجة بذلك ، انما بصورة متأخرة ، وكانوا في المدينة ، مضوا بغضب وهياج شديدين ، الى الامبراطور ، ذلك فور سماعهم خبر هذه الجريمة البشعة ، واعربوا عن استيائهم نيابة عن اولئك الذين كانوا قد عبروا البحر قبل يوم واحد ، وعلى الأخص عن اولئك الذين هوجموا من قبل الكفار في مدينة مسيحية ، وعندها أصدر الامبراطور ـ الذي يبدو أنه لم يتمكن من إيقاف البشناق بأية طريقة ـ أصدر أوامره الى قواتنا بالانسحاب والتمركز على حواف القصر ، كما أمر أن يقام لهم سوق ، وبناء على هذا عندما تبلغ الفرنجة نص رسالة الملك هذه ، استجابوا للأوامر فخرجوا من وراء متاريسهم بعدما تركوها على حالها ، و انطلقوا نحو الأمام لا يعتريهم خوف ولا وجل ، وعندما شوهدوا لحق بهم بعض البشناق ، وحاول بعض آخر الاستيلاء على مواقعهم المحصنة ، وهنا عادوا بسرعة وقاوموا كل من أولئك الذين كانوا يطاردونهم ، وأولئك الذين كانوا منهمكين في احتلال موقعهم ، وقاتلوا ببطولة وشجاعة ، وفقد العديد من الجند المشاة بعض معداتهم ، إذ رموا بها وهم يحاولون الفرار بسرعة ، وحينذاك ، حمل بعض الرسل الذين أخذهم الغضب الشديد ـ مثل ايفراد من بيريتولي(٩١) ، ومناسيس (٩٢) من بوليس ، وآنسيلم (٩٣) حاجب أمير فلاندرز ، وآخرون غيرهم ـ السلاح ، إذ اعتقدوا بأنه من الأفضل لهم أن يموتوا بشرف من أن يشهدوا رجالهم وهم يموتون هكذا ، لهذا حملوا اسلحتهم ، وخرجوا من المدينة ، وانضموا الى رجالهم ، وشاركوا في الصراع ، وعندئذ مضى مقدم الداوية ، اللورد ايفراد من باريس(٩٤) ، وبارتلميو المستشار ، أسقف بوربون ، وآخرون

معهم الى الامبراطور ، وتغلبوا عليه بالعقل ، بينما لم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك بالقوة ، فأقسم يمينا بأنه لم يكن على علم بهذا الذي حدث ، والتمس العذر لرجاله ، وأمر العساكر بالتمركز قرب القصر ، وعندما استقر كل شيء ، وانتهى الصراع أمر بإقامة سوق مناسبة.

ولقد كان بالامكان أن ترضي هذه النتيجة المبعوثين ، لولا أنهم كانوا قد حكموا على كل جريمة في ضوء الأخرى ، لأنهم كانوا قد علموا بأن الامبراطور على اتفاق مسبق مع التركمان وأنه قد حقق مؤخرا نصرا مبينا عليهم ، هو بالذات ، قد وقع بالفعل هدنة معهم لمدة اثنتي عشرة سنة (٩٥) ، وتضاعفت خيانته كذلك ، وتجلت بوضوح في ضوء حقيقة أن الأعداد الكبيرة هي التي يمكنها فقط دخول مملكته بأمان ، لأن أسقف لانجريس ، وكونت وارين ، وبعض الآخرين الذين كانوا قد ارسلوا بضعة رجال للتقدم (٩٦) الى القسطنطينية للتزود بالسلاح والاطعمة للرحلة قد منيوا بخسائر كبيرة في المقتنيات ، وبكوا طويلا على العديد من رفاقهم الذين لاقوا حتفهم ، أو أصيبوا بجراح ، ولم يحدث هذا مرة واحدة فقط ، لأننا منذ ساعة دخولنا الى أرضه تعرضنا للنهب وقطع الطريق من قبل شعبه ، لأن قواتنا لم تكن تعادل قوتهم ، ولعل تلك الحالة كانت تحتمل بأن نقول بأننا نستحق ما نزل بنا، وما عانيناه من مصائب ،وذلك اذا ما وضعنا في الحسبان الجرائم والذنوب التى اقترفناها ، لولا أن الأمر بلغ حد التكفير والعبث بالمقدسات ، فقد صدف أنه عندما قام بعض كهنتنا بتأدية بعض القداسات على المذابح الاغريقية قام بتنقية هذه المذابح وتطهيرها بالتقدمات والمطهرات كما لو أنها دنست ، ولقد كان لكل واحد من أغنياء الاغريق كنيسته الخاصة به ، مزينة بالالوان الرائعة والمرمر ، ومضاءة بالمصابيح حيث أن كل رجل من أولئك الأعيان كان بامكانه أن يقول حقا : « يا رب أحببت محل بيتك وموضع مسكن مجدك (٩٧) » لو أشرق نور الايمان الحقيقي فيه ، لكن يا

لرهبة ما سمعناه عن سوء استخدامهم لها ، وهو أمر يجب أن يكفر عنه بالموت ، ذلك أنهم كانوا في كل مرة يحتفلون بها بزواج واحد من رجالنا المعمدين حسب الطريقة الرومانية ، كانوا يعيدون تعميده قبل إجراء العقد ، واننا نعلم المزيد عن بدعهم (هرطقاتهم) الأخرى ، فيما يتعلق بكل من معالجة القربان المقدس ، وسير روح القدس(٩٨) ،لكن ما من مسألة من هذا القبيل ستشوه صفحتنا ، إذا لم تكن متعلقة بموضوعنا ، وفي الحقيقة كانت تلك الأسباب هي التي حملت رجالنا على كراهية الاغريق ، لأن أخطاءهم أصبحت معروفة ، حتى من قبل أقل الناس شأنا ، وعلى هذا الأساس حكم عليهم بأنهم ليسوا مسيحيين ، واعتبر الفرنجة بأن قتلهم مسألة لا تنطوي على أهمية وهكذا فإن منعهم عن ارتكاب أعمال السلب والنهب كان يتطلب المزيد من الصعوبات.

ودعنا الآن نعود نحو الملك ، الذي رغم انه كان يتلقى مبعوثين من قبل الامبراطور يوميا تقريبا ، فإنه كان يشكو من تأخر سفرائه بالذات ، لانه لم يكن يعلم ماذا جرى لهم ، وكان الاغريق يأتون دائما بأخبار جديدة ، دون أن يقدموا أي دليل عليها ، وكانوا أقل الناس موضعا للثقة ، لأنهم كانوا جميعا يستخدمون المداهنة والتملق في كل مناسبة ، وتظاهر الملك بالرضى ، معتبرا الأمر له قيمة ضئيلة ، لانهم كانوا يستخدمون القابا وعبارات شرف وتمجيد مثل « طال عمرك » ليس للملوك فحسب ، بل للأشراف ، ويحنون رؤوسهم ويركعون وحتى يسجدون على الأرض تواضعا ، وكانت الامبراطورة(٩٩) تكتب للملكة(١٠٠)من حين لآخر ، وعندئذ استحال الاغريق جميعا الى نساء ، ووضعوا جانبا كل صفة من صفات شجاعة الرجولة قلبا وقالبا ، وكانوا يثقون بنا ، ولم يحافظوا على احترام انفسهم ، وكانوا بصورة عامة يرون فعلا ، أن أي شيء يتم من أجل الامبراطورية المقدسة ، لا يمكن أن يعتبر حنثا باليمين ، ولا يظنن امرؤا بأنني أود النيل من قوم من الناس اكرههم ، ولست اقوم باختراع جماعات من الاغريق من نسج خيالي ، كمن لم يرهم قط في عمره ، فكل من عرف الاغريق سيجيب

إذا ما سئل عنهم قائلاً بأنهم عندما يخافون ، يصبحون جديرين بالازدراء ، ويفرطون في خستهم ، بينما يتعنتون ويتغطرسون في عنفهم على من يقع تحت رحمتهم عندما يكونوا أصحاب اليد العليا (١٠١) ، وعلى اية حال ، لقد عمدوا بكل ما اوتوا من قوة الى نصح الملك بأن يغير طريقه من ادرنه الى سان جورج في سيتوز ، وان يعبر البحر هناك على جناح السرعة ، وبشكل يوفر له الميزات ، بيد ان الملك لم يكن يرغب ان يقوم بشيء لم يسمع به البتة ، ولم يعرف ان الفرنجة قد فعلوه (١٠٢) في عمرهم ، ولذلك مضى على الطريق ذاتها التي كان الألمان قد سبقونا بالسير عليها من قبل ، لكن ليس مع نفس نذر السوء ، وعندما أصبح على مسيرة يوم واحد من القسطنطينية ، قابل مبعوثيه وممثليه (١٠٣) ، فقصوا عليه قصصا طويلة عن الامبراطور مما سبق لنا واشرنا الى بعضه بصورة جزئية ، وكان هناك آخرون ممن كانوا قد نصحوا الملك بالتراجع والاستيلاء على الارض الوفيرة الغنى بقلاعها ، ومدنها ، وأن يكتب في الوقت ذاته الى الملك روجر ، الذي كان برفقة الاسطول يهاجم بكل عنف اراضي الامبراطور ، ليأتي لمهاجمة القسطنطينية نفسها (١٠٤) ، ولكن يالسوء طالعنا ، بل سوء طالع جميع رعايا القديس بطرس (أي الكاثوليك) لم يؤخذ برأيهم ، لذلك تقدمنا ، وعندما اقتربنا من المدينة(١٠٥) تخيل معي كيف احتشد أشرافها وأثرياؤها جميعا ، وحتى عامة الناس فيها ، وخرجوا لمقابلة الملك ، فاستقبلوه بما يقتضيه الشرف والتواضع ، طالبين اليه أن يمثل أمام الامبراطور ، ويلبي رغبته في مشاهدته والتحدث اليه (١٠٦) وأشفق الملك في تلك الساعة على الامبراطور الذي كان قد اعتراه الخوف ، فاستجاب لطلبه ، فدخل مع لفيف من رجاله ، حيث قوبل بالترحاب الامبراطوري في بهو القصر ، وكان كل من الملكين في عمر واحد وشكل جسماني متشابه ، وتميزا عن بعضهما البعض باللباس والعادات فقط ، وبعد أن تبادلا العناق والقبل ، دخلا الى حيث وضع كرسيان (١٠٧) فجلس الاثنان وتبادلا الحديث بمساعدة مترجم ، في

حين أحاط بهما رجالهما على شكل دائرة ، وسأل الامبراطور الملك عن أحواله الحاضرة ، واستفسر عن رغباته بشأن المستقبل ، متمنيا له الأمور التي ينعم بها الرب ، وواعدا إياه بتقديم المساعدات ضمن الامكانات المتاحة له في نطاق سيطرته ، ولكن ترى هل من الممكن أن يكون ذلك قد تم بإخلاص بقدر ماشرح بسرور ؟ لو أن إيماءاته وحيوية تعابيره وكلماته كانت إشارة حقيقية تعبر بصدق عما كان يدور بخلده من أفكار ، علما بأن أولئك الذين كانوا يقفون على مقربة منه قد شهدوا بأنه أحاط الملك بعطف كبير ، لكن مثل هذا الدليل ظاهري فقط وليس قطعيا ! وفي النهاية افترق الملكان وكأنهما أخوان ، واصطحب أشراف البلاط الامبراطوري الملك الى القصر الذي جرى اعداده ليكون مكانا لاقامته .

نهاية الكتاب الثالث

obeikandl.com

بداية الكتاب الرابع

تقع القسطنطينية ، مجد الاغريق ، الغنية بشهرتها ، والأغنى بممتلكاتها ممتدة على شكل شراع سفينة(١٠٨)مثلث الشكل ، وفي زاويتها الداخلية تقع سانتا صوفيا (آيا صوفيا)(١٠٩) ، وقصر قسطنطين (١١٠) الذي يوجد فيه معبد(مشهد) صغير يحظى بتقدير كبير ، بسبب وفرة الآثار المقدسة (١١١) ، وفضلاً عن ذلك طالعنا ذراع القديس جرجس عن يميننا (١١٢) ، ومصب نهر عن يسارنا ، يتدفق هذا النهر بعد تفرعه من الذراع مسافة تقارب الأربعة أميال(٦) ، وفي ذلك المكان كان يعلو قصر بلاشرين شامخا ، رغم أن أساساته كانت تقع في أرض منخفضة ، وحيث أنه محاط من جوانب ثلاثة فهو يوفر لسكانه ثلاثة مجالات للتمتع بالنظر الى البحر والحدائق والمدينة ، وإن منظره الخارجي من الجمال بقدر ، حيث لايضاهيه مكان آخر ، أما داخله فبوسعي أن أقول عنه كل شيء : لقد كان مزينا بالذهب بكل دقة ، إضافة إلى عدد كبير من مختلف الألوان ، وكانت الأرض من المرمر ، وقد رصفت بمهارة فائقة ، ولست أدري فيما إذا كان الفن أم المواد التي احتوتها قد زادت من جمالها أو من قيمتها(١١٤) ، ويشتمل الجانب الثالث من مثلث المدينة على حقول محصنة ببروج وأسوار مزدوجة تمتد على طول حوالي الميلين ، من البحر الى القصر ، ولم يكن ذلك السور من القوة بمكان ، كما أنه لم تكن له أبراج منفردة ، غير أن المدينة تضع ثقتها ، حسب اعتقادي ، في حجم سكانها ، وبطول فترة السلام ، التي كانت تنعم بها(١١٥)وتمتد أمام الأسوار الأرض الفسيحة المحروثة بالمحراث والمعول ، وتكتنفها حدائق تزود السكان بمختلف أنواع الخضراوات ، أما في خارجها فكانت الأقنية الجوفية ، تتدفق بمياه عذبة لتزود المدينة بها بشكل وفير(١١٦) .

وكانت المدينة ذاتها في أماكن متعددة منها تعاني من الظلمة

الدائمة ، وذلك لأن ميسوري الحال فيهـا كانوا يظللون شـوارعها بالمباني ، ويتركون تلك الطرقات تعج بالغبار والأوسـاخ والأمـكنة المظلمة التي يعاني منها الفقراء والمسـافرين ، وهناك في الحقيقـة كانت ترتكب جرائم القتل والنهب ، لأن مثل تلك الأعمال تجد الظلمة وسطا خصبا كي ترتكب فيه ، وبالاضافة الى ذلك ، بمـا أن الناس كانوا يعيشون في تلك المدينة بلا قانون ، ذلك أنها مدينة تحوي مـن الأعيان والأغنياء بقدر ماتحوي من اللصوص والفقراء ، علما بأن المجرم لايلاحـق ، ولايخجـل لأن الجـريمة لاتعـاقب بالقانون ، ولاترى الضوء برمتها ، فهي تتجاوز كل اعتـدال بـأي مجال كان ، وهي تتجـاوز بقية المدن الأخـرى بـالرزيلة ، كمـا تتجاوزها بـالثروة ، وعلى الرغم مـن أنهـا تحتـوي على عدة كنائس ، فليس بينها واحدة تعادل كنيسـة آيا صـوفيا مـن حيث حجمها ، بيد أنه هناك مايعادلها من حيث جمالها ، الذي يزيده فتنة كثرة الآثار المقدسة ، وقد تسنت الفرصة للبعض منا كي يدخل هذه الأمكنة(١١٧)، فمنهم من دخل لمشاهدة المناظر ، ومنهـم مـن دخـل لتأدية فريضة العبادة بإيمان .

وقام الملك يرشده الامبراطور بزيارة المشـاهد والمعـابد(١١٨)، وتناول بعد عودته طعام العشاء معه ، وذلك نزولا عند رغبته ، وبناء على إلحاحه الشديد في الطلب ، وكانت تلك الوليمة مصـدرا للمتعـة للأذن والفم والعين ، حيث وجد فيها مـايطيب سـماعه ، ومـايلذ أكله ، ومـايسر رؤيتـه(١١٩)وفيهـا كان التفـاح والعنب وغيرهما ، وهناك خشي على الملك عدد من رجاله ، لكنه وهـو الذي سلم نفسه للعناية الربانية لم يخش شيئا على الاطـلاق ، لانه كان يتحلى بالايمان والشجاعة ، فالذي لايميل الى الحـاق الأذى بغيره لايعتقد بأن أحدا يريد له الضرر .

وعلى الرغم من أن الاغريق لم يقدموا لنا برهانا على أنهم كانوا ينوون الغدر بنا فما زال الاعتقاد يساورني بأنهم ماكانوا ليظهـروا هذا الاحتفاء وهذه العناية لو أن نواياهم كانت طيبـة ، لقـد كانوا

فعلا يخفون النوايا والخطط الشريرة التي اقترفوها بعدما عبرنا الذراع ، هذا ولايؤخذ على الاغريق اغلاقهم أبواب المدينة في وجه الحشد ، بما أنه قد تم احراق العديد من بيوتهم مع أشجار الزيتون ، وذلك إما طلبا للأخشاب ، أو بسبب غطرسة وسكر الحمقى ، وغالبا ماكان الملك يعاقب المهاجمين بقطع آذانهم وأيديهم وأقدامهم ، ومع ذلك لم يتمكن من وضع حماقات المجموعة بأكملها تحت السيطرة أو المراقبة ، وكان الحل لهذه المعضلة واحدا من اثنين : إما قتل بضعة آلاف دفعة واحدة أو التغاضي عن أعمالهم الشريرة(١٢٠) ، وكما كنت أقول من قبل ، كانت هناك سفينة توفر لنا سوقا كبيرا وذلك أمام القصر ، وحتى بين الخيام كان يتوفر لدينا سوق لتبديل العملة بصورة وافية ، لو أنه دام طويلا ، إذ كنا ندفع أقل من اثنين « ديناري » للستامينا الواحدة ، ومارك واحد لكل ثلاثين ستامينا (ثلاثة سولدي = قطعة ذهبية) لكن بعد أن سافرنا وبعدنا ثلاثة أيام عن المدينة ، صرنا ندفع خمسة أو ستة ديناري لقاء ستامينا واحدة ، وخسرنا ماركا واحدا لقاء كل اثني عشر سولدي (قطع ذهبية) .

وبينما كان الملك ينتظر القوات القادمة من أبوليا ، وعندما كانت تعبر بين برانديزي ودورازو(١٢١)حل عيد القديس دينس(١٢٢)فجرى الاحتفال به بالمراسيم المعتادة ، وكما يقضي الواجب ، ولما كان الاغريق يحتفلون بهذا العيد ايضا ، علم الامبراطور باحتفالنا ، فبعث للملك بمجموعة من رجال الدين تم اختيارها بدقة متناهية ، وزود كل فرد من أفرادها بشمعة زينت بالذهب وبألوان متنوعة ، وبذلك زاد من أبهة الاحتفال ، ولاشك أن رجال الدين لديهم كانوا يختلفون حقا عن رجال الدين عندنا ، من حيث حديثهم ونظام خدماتهم ، وقد تركوا انطباعا جيدا بتراتيلهم الجميلة ، وبأدائهم الجيد باختلاط أصواتهم بين العالي والخافت ، وحيث أن أصوات الخصيان منهم (لأن العديد منهم كانوا خصيانا) وإن كانت أصوات رجال ، تميزت بالدفء ، فقد ادخلت الطرب الى قلوب الفرنجة ورطبتها ، وكما أنها بعثت السرور

في قلوب الجميع وكان لتصفيق هؤلاء الخصيان بأيديهم بشكل آخاذ أكبر الآثار ، إنما إننا إذ نذكر بهذه الافضال من جانب الامبراطور ، نريد اظهار الغدر الذي كان يضمره لنا ، ذلك الرجل الذي كان يتظاهر بعواطف الصداقة التي اعتدنا على ابدائها نحو أقرب المقربين من اصدقائنا فقط ، في حين انه كان يخفي شعورا بالكراهية لنا ، لم نستطع ان نطفئه الا بموتنا ، ومن المؤكد انه ليس باستطاعة اي مخلوق أن يفهم الاغريق ما لم يعاشرهم ، او ما لم يوهب الهاما نبويا .

ونظرا للشك في تعهداتهم ، وازدراء لاحسانهم ، وبسبب توقع الأضرار التي لحقت بنا فيما بعد ، ألح علينا أسقف لانجرس أن نأخذ المدينة بالقوة ، وقد برهن على أن الجدران التي اضمحل جزء منها أمام أعيننا ، كانت ضعيفة ، وان أهلها كانوا كسالى خاملين ، وأن الماء العذب يمكن أن يقطع دونما إعاقة أو جهد يذكر ، وذلك بقطع المجاري ، وقد قال ، وهو الورع العاقل : إنه إذا ماأخذت المدينة ، فلن تقتضي الضرورة دحر المدن الأخرى ، بما انها ستدين بالطاعة طوعا لمن امتلك العاصمة (١٢٤) ، واضاف الى ذلك قوله بأن القسطنطينية مسيحية بالاسم للمسيحيين في حين ان امبراطورها كان قد جازف قبل بضعة سنوات ، فحاول مهاجمة امير انطاكية (١٢٥) ، او كما قال: لقد استولى اولا على طرسوس والمصيصة وحصون عديدة ، وقطعة كبيرة من الأرض وبعدما طرد الاساقفة الكاثوليك في المدن واستبدلهم بالهراطقة (١٢٦) اقدم على حصار انطاكية».

لقد قام بكل هذا على الرغم من أن واجبه كان : طرد « الكفار » المجاورين عن طريق توحيد القوى المسيحية ، الا انه مضى بمساعدة الكفار للقضاء على المسيحيين ، لكن الرب الذي يعلم كل شيء ، يحكم وينتقم لهذه الأمور ، وهكذا قضى بأن يجرح نفسه بسهم مسموم (١٢٧) ، وينهي حياته المخزية نتيجة لذلك الجرح البسيط ، وعلى اية حال لم يقتصر الحاكم الحالي على الاحتفاظ

لنفسه ، وهو وريث الجريمة المخزية ، بالسلطات الكنسية والملكيات الأخرى التى حاز عليها ، بل أنه كان يتطلع تماما بتشوق وجشع الى ماتبقى من الأراضي التي كان يريدها والده ، وهو الذي كان قد انتزع بيعة الأمير وطاعته له (١٢٨) ، وأقام مذبحا ضد مذبح أخر ، كما أسس بطركية خاصة به في المدينة ، مزدريا بطركية القديس بطرس: « ليكن القرار قرارك يارب ، فيما اذا كان يتوجب عليك أن تحافظ على الرجل الذي لاينعم الصليب ولا قبر المسيح بالأمان في ظل حكمه ، والذي بتدميره سيزول من الوجود كل عدوان عليهما ».

وعندما انتهى الأسقف من حديثه لقيت ملاحظاته الترحاب لدى بعضهم ، أما العديد ممن لم يلق الترحاب من قبلهم فقد أجابوا بعبارات ، مثل العبارات التالية : « لايسعنا بدون معرفة بالقانون أن نحكم على إخلاصهم وإيمانهم ، وإن حقيقة مهاجمته لانطاكية كانت ضربا من ضروب الشر ، لكن يمكن أن تكون لديه الاسباب المسوغة لذلك ، والتي نجهلها نحن ، وإنه لمن المؤكد بأن الملك قد تشاور مؤخرا مع البابا ، لكن البابا لم يعطه أية نصيحة ، ولم يصدر إليه أمرا بشأن هذه المسألة ، والملك يدرك كما ندرك بأنه يتوجب علينا زيارة القبر المقدس بتوجيه من الحبر الاعظم ، لكي نمسح خطايانا بالدم ، أو بتحويل الكفار (١٢٩) صحيح أننا في هذا الوقت يمكننا أن نهاجم أغنى المدن المسيحية ، ونغني أنفسنا ، لكننا بعملنا هذا لابد لنا من أن نقدم على اقتراف القتل والتعرض للقتل ، وعلى هذا إذا كان نبح المسيحيين يمحو خطايانا ، فدعونا نمضي للحرب ، ومرة أخرى إذا كان اخفاء المطامح لايدنس موتنا ، وإذا كان الموت في هذه الرحلة من أجل الحصول على المال يعد وفاء بالوعد ، ويعتبر طاعة للحبر الاعظم ، فأهلا بالثروة ، ودعونا نعرض أنفسنا للخطر دون أن نخشى الموت » ! .

وعلى هذا النحو كان الخلاف فيما بينهم ، وأخذ مؤيدو كل جانب يدافعون عن أنفسهم بكل ماأوتوا من قدرة ، ومع نلك فإنني أعتقد أنه كان بوسع الأسقف أن ينتصر ، لولا أن الاغريق لم يكسبوا اليد

العليا عن طريق الخيانة ، أكثر مما فعلوا عن طريق القوة ، ذلك أنهم اعتبروا تأخرنا موضعا للشك (١٣٠) ، ومــع هــذا لم يتجــرأوا على الالحاح علينا بالعبور ، لكنهم استولوا على جزء كبير من ســوقنا ، وسحبوه من بيننا ، ثم أخذوا يحثوننا على الجواز عن طــريق بــث الاشاعات عن الألمان ، فقد قالوا باديء ذي بدء بأن التركمان قــد حشدوا جيشا عرمرما ، وأن الألمان قد قتلوا / ١٤٠٠ / رجــلا مــن ذلك الجيش دون أن يتكبدوا أية خسارة ، وهكذا أقنعونا بعد يومين لكي نقوم بالعبور التعيس ، وذلك عن طريق إذاعة خبر سعيد ومفرح أكثر من السابق ، فقد قالوا بأن الألمان قد وصلوا إلى قــونية ، وأن أهالي تلك المدينة الذين أخذ الرعب منهم كل مأخذ قد فروا هــاربين قبل وصولهم إليها .

وبما أن الألمان كانوا يتقدمون بسرعة ، فقد كتــب امبــراطورهم إلى الامبراطور الآخــر(١٣١) يدعوه للالتحــاق بــه ، وأنه بــانتظاره ليسلمه ما أقدم على احتلاله لحسابه بدون جهــد يذكر (١٣٢) ، وثــار الجيش بهذا المهماز وتهامس الرجال ضد تــأخر الملك ، لأن البعض قد حسدوا الألمان على ثروتهم ، وحسدهم آخــرون على شــهرتهم ، وعلى هذا قــــرر الملك العبــــور قبــــل وصــــول أولئك الذين كان ينتظرهم (١٣٣) ، محكوما عليه بكل من نصيحة الأغريق ، وشــكاوى رجاله ، وأعد الامبراطور أسطولا للجــواز ، بسرعة تعــادل شــوقه الكبير لهذا التحرك .

وقضى الملك خمسة أيام (١٣٤) على الجانب الأقــرب مــن الذراع ، منتظرا قسما من جيشه ، ثم أمضى خمسة أيام أخرى على الجــانب الآخر ، يتحمل دهاء الأغريق ، فقد توفرت لهم الآن الفــرصة التــي كانوا يتوقعونها ، وتجرأوا على كشف النقاب عن مشاريعهم ، غير أن حماقة رجالنا سمحت لهم بأن يخفوا شرهم وهكذا فقــد وصــف الكثيرون تصرفات الأغريق حيالنا على أنها انتقام ، وليســت مــن قبيل المكر والخداع ، فمن لديه معرفة جزئية بقضية يقــوم بإصــدار حكم جزئي عليها ، أما من لايعلم القضية برمتها لايمــكنه أن يطلق

حكما عادلا ، وفي حقيقة الأمر يمكن الحاق الأذى بالاغريق ولكن لايمكن تهدئتهم ، وعليه فقد قمنا بالجواز تتبعنا المؤن والسفن مع صرافي المال في الخارج ، وقد عرض الصرافون خزائنهم على طول الساحل ، وكانت مناضدهم تشع بالذهب وتتلألأ بالأواني الفضية التي كانوا قد اشتروها منا ، وكان قد خرج من بين صفوف الجيش اناس يقايضون لقضاء حاجياتهم الضرورية ، وانضم إليهم رجال وضعوا أعينهم على إمدادات الآخرين ، فاشتهوا تملكها ، وذات يوم قام فلمنكي يستحق الازدراء والالقاء في الجحيم ، قام وقد رأى الثروات الهائلة أمامه ، فأعمته شهوته في تملكها فصاح : « هافو ... هافو (١٣٥) » واستولى على ما اشتهاه ، وقام بتحريض الرجال من أمثاله على ارتكاب الجريمة ، مدفوعا إلى ذلك بوقاحته وبقيمة الغنيمة ، وبما أنه كان هناك حمقى في كلا الجانبين (لأنه في تبديل العملة هناك العديد من الوسطاء والحمقى) فقد هرع أولئك الذين كانوا يحملون المال واندفعوا في جميع الاتجاهات .

وازدادت الضجة ، وعظم الارتباك ، وسقطت المقاعد ، كما سلب الذهب واحتجز ، وفر صرافوا المال المنكوبين خشية الموت ، ولدى فرارهم نقلتهم السفن ، ولما غادرت السفن أخذت عددا من رجالنا الذين كانوا يبتاعون الطعام خارج المدينة ، إلى داخل المدينة ، وقد تعرض أولئك الرجال للضرب والسلب ، كما سلبت المدينة ضيوفها ، وعاملتهم وكأنهم أعداء .

ووضع الملك في صورة الحال ، فقام وهو يشتعل غضبا ، فطلب إلقاء القبض على المجرم ، الذي شنق فور تسليمه من قبل كونت فلاندرز (١٣٦) على مشهد كامل من أهل المدينة ، وعندما أسرع الملك للبحث عن البضائع المفقودة ، فأعلن العفو عن الذين أعادوها ، وتهدد أولئك الذين أخفوها بإنزال العقاب بهم ، مثل العقاب الذي أنزل بالفلمنكي ، وهكذا تعين عليهم الا يخافوا أو يخجلوا من وجود المنهوبات لديهم ، وأمر الجميع بإعادة كل شيء إلى أسقف لانجريس ، وفي الصباح جرى استدعاء صرافي المال الذين كانوا قد

فروا في اليوم السابق ، فاستعادوا كل ما ستطاعوا أن يقسموا يمينا أنهم قد فقدوه ، وطالب السواد الأعظم منهم وسالوا أكثر مما يتعين لهم ، وكان الملك يفضل تعويض المواد المفقودة من ممتلكاته الخاصة بدلا من أن يزعزع لسلام جيشه (١٣٧) .

وفي أعقاب هذا الاسترداد اختار عددا من المبعوثين أرسلهم إلى الامبراطور يطلبون منه إعادة رجال (الملك لويس) المحتجزين وبضائعهم ، وإعادة نصب سوق للجيش ، وكان على رأس المبعوثين أرنولف صاحب ليزيو ، وهو أسقف صاحب مكانة سامية ، بسبب بلاغته وورعه ، وبارثلميو الحاجب ، وبما أن الملك كان دائما يعرف بسرعته في تصحيح الخطأ ، فقد ألح على مبعوثيه بالاسراع ، فعبروا في الصباح الباكر ، وسمح لهم بالدخول إلى القصر من قبل حراس الأبواب ، لكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث مع « الوثن »(١٣٨) ، وترتب على المبعوثين في ذلك اليوم أن يعزي كل منهم الآخر ، وأن يشغلوا أنفسهم بالقاء النظر على الصور بدلا من الانشغال بتناول الطعام ، وأما أثناء الليل ، فقد قام الرخام الذي يعبد الأرض مقام السرير والفراش ، وفي اليوم التالي ، وبعد أن نهض ذلك الرجل غير الورع ، في حوالي الساعة الثالثة ، جلبوا إلى حضرته ، دون أن يكونوا قد ذاقوا الطعام أو عرفوا طعم النوم ، ونفذوا هدف السفارة فيما يتعلق بكل من التعويض لرجاله وشكاوى رجالنا ، وببلاغة حكيمة يسودها اللطف كان بامكان الأسقف أن يجعل الوصول إلى الامبراطور ممكنا ، لو أن ذلك الثعبان كان يمكن سحره من قبل الحواة الراقين ، لكنه كان قد تغير عما كانوا يعرفونه من قبل ، وأصبح « مثل الصل الأصم يسد أذنيه »(١٣٩) ، وأصبح الآن مكشوفا لهم ، بعد أن كان يتستر وراء الخداع ، ومع ذلك كان الأسقف مصرا ، وسادت كلمته جزئيا ، وحصل الجيش على سوق ، وتوفرت هناك طريق لرحيل الحجاج الذين كانوا قد فقدوا بضائعهم ، وقال الامبراطور إنه مازال على استعداد للاجتماع بالملك ، وإرسال المبعوثين على الفور ، وعندئذ أملت الحاجة على

الأسقف أن ينسحب قبل أن يتوجب عليه أن يصوم لليوم الثالث في قصر الامبراطور .

وعلى أية حال ظل الامبراطور يتزين زيفا باللطف ، لكي يكون أكثر قدرة على الحاق الضرر ، فأمن سوقا ، لكنه ظل سوقا هزيلا ، وأبقى على نيته الاجتماع بالملك ــ إنما بعد فوات الأوان ــ وهكذا فقد بعث برسله بعد انقضاء عدة أيام ، وأكل الفرنج أثناء الانتظار الطعام الذي كان معدا من أجل الرحلة ، وأراد الامبراطور أن يعود الملك إلى القصر ، بينما أراد الملك أن يجري الاجتماع على الجانب الذي يقيم عليه ، أو في البحر بحيث يكون الطرفان في موقع متساو من حيث مركزيهما ، وكشف الامبراطور أخيرا ، بواسطة رسوله ، عن الشروط التي كان قد أجلها بحصافة وحذر ، فقد طلب أمرين إثنين : امرأة من قريبات الملك كانت ترافق الملكة ، طلبها زوجة لواحد من أبناء أخيه ، وأراد أن يقدم النبلاء يمين الولاء له ، وقد وعد مقابل ذلك بتأمين الأدلة والتبادل المالي العادل (أي الصرافة) والأسواق في كل مكان ، وحيث لن تتوفر هذه الامتيازات للفرنج ، فإن لهم الحق بالقيام بأعمال السلب ، وهم مفوضون بذلك ، وإذا رفضت قلعة ما أو مدينة تقديم المساعدة من هذا القبيل ، يمكنهم الاستيلاء عليها ، لكن بعد نهبها عليهم أن يخلوها وتترك له غير محتلة ، وفضلا عن ذلك فقد قدم للملك المزيد من الهدايا الملكية ، ولكل واحد من النبلاء هدايا تليق بمقامه .

وبعد أن سمعوا بتلك الشروط ، أصبح من الضروري مرة أخرى أن يتأخروا ، أولا لأن كونت موريين (١٤٠) ومركيز مونتفرات (١٤١) أخوال الملك ، وكونت أوفيرن (١٤٢) وعديدون آخرون ممن كنا ننتظره ، كانوا قد خيموا بظاهر المدينة ، حيث كان بوسعنا أن نراهم ، ثانيا لأن النبلاء رفضوا طلب الامبراطور ، وعليه أقدم الاغريق الذين كانوا في العادة يلحون على الناس أن يعبروا ، على تأخير العبور بخلق العراقيل (١٤٣) ، وبناء على ذلك كله فقد انتشر الفرسان البارزون في الجبال لتأمين التموين لنا أثناء الرحلة ،

واستطاعوا بفضل الاغارات أن يزودوا الجيش بـالامداد ، وكان في ذلك خسارة للاغريق ، وقـاموا بشراء مـركب لاتبـاعهم ، وبـذلك استطاعوا أن يقدموا ما كان الاغريق قد أوقفوه ، وأبحروا به عبـر النزاع ، وبذلك رحبوا بالرجال الذين كانوا بانتظارهـم ، وفي الوقـت ذاته عندما كانت مطالب الامبـراطور تثير الغضـب الشـديد قـام روبرت ، كونت بيرش(١٤٤)أخو الملك باختطاف المرأة قريبته سرا من بين حاشية الملكة ،وبذلك حرر نفسه وبعض النبلاء من الرضوخ الى الامبراطور ، وحال دون زواج قريبته هـــذه مـــن ابـــن أخـــي الامبراطور ، ومن ثم مضى إلى نيقوميديا .

وناقش الملك عرض الامبراطور مع الأساقفة وبقية البـارونات ، فقد قال بعضهم ، ولاسيما أسقف لانجرس : « الا ترون إنه رجـل شرير ، يقوم الآن بكشف ماكان قد اخفاه من قبـل ، إنه يطلب منكم امر الرضوخ له ، في حين كان من الممكن أن يكون هـو الراضـخ ، وبعد بما يجب أن يكون قد حققه نصرنا عليه ، ومهما يكن الحـال ، دعونا يا أحبائي نضع الشرف فوق التـوافق وقبله ، ودعونا نحقـق بالقوة ماوعدنا به بالرضوخ ، كمـا لو كنا وضـعـاء مـن أهـل الشره ! إنه عندما يكون لدينا مثل هذا السيد الشريف ، مـن المؤكد أنه من العار أن نقدم الطاعة والولاء لرجل كافر » .

وعلى الرغم من هذا العرض القـوي ، فقـد سـاد رأي جمـاعة أخرى، بسبب عددها الكبير وطرحها المنطقي ، فقد حاجج أفـرادها وجاءت اجاباتهم على النحو التالي : « إنه طبقا لاعرافنا يمـكن أن يكون لنا بعد الملك أسياد عدة (لوردات) نخضع لسلطانهم ، لكننا نحافظ على ولاءنا له أولا ، وإلى أبعد حدود الولاء ، فإذا كنا نعتقد بأن ذلك مدعاة إلى الخجل ، دعونا نقضي على هـذا العـرف ، والآن وبعـد أن أصبح الامبـراطور يخشى على مصـالحه نراه يطلب منا الرضوخ ، ولذلك إذا كان من العار علينا أن يخشانا ، وإذا كان من المعتقد غير مشرف لنا أن نعمل من أجل الامبراطور مـا نفعله مـن اجل لوردات أقل شأنا ، فهيا بنا نتخلى عن هذه الفـكرة ، وعلى أية

حال إذا كان خوف الامبراطور ، وتعلقنا بالعرف لا يضير الملك ، ولا يسيء لنا ، فدعونا نحافظ على عرفنا ، ودعونا ننتزع خشيته ، ونطرد خوفه كيما نحقق لأنفسنا المنافع ، في الوقت الذي نتطلع فيه إلى الأمام ، إلى مقتضيات الرحلة ، إننا نريد الامدادات ، وما من واحد منا يعرف هذه الأرض ، ولذلك نحن بحاجة إلى دليل ، إننا نسير ضد « الكفار » فدعونا نكون في سلام مع المسيحيين » .

وتمكن أثناء هذه المناقشات معظم الرجال تقريبا ، الذين كان ينتظرهم الملك ، من عبور الذراع ، هذا وإن ذكر أسمائهم يثير الأسى في نفسي ، لأنني كنت أشهد وفياتهم التي كانت لا تتوقف (فضلا عن أن قوائمهم يمكن أن تذهل القارىء) ولما كان الامبراطور وحده يسبب المزيد من التأخير ، أصدر الملك أوامره بإزالة المعسكر للتحرك ، وما أن سمع الامبراطور بذلك ـ بعد أن أرسل مبعوثيه ـ حتى أسرع بالسير وراء الملك ، معينا إحدى القلاع لاجتماعهما ، وهناك حشد أسطولا من أجل ضمان سلامته ، ومركزه في البحر على مقربة منه ، وعندها لم يرغب الملك ـ الذي أبدى اعجابه بسمعة الألمان ، وبتصرفاتهم ـ في التأخير ، وسعى سعيا حثيثا لكي يحظى لنفسه بسمعة مماثلة ، لكنه مع ذلك لم يرفض فكرة الاجتماع ، ففي الوقت الذي مضى فيه الجيش في تقدمه ، عاد هو مصطحبا معه عددا من نبلائه البارزين ، مع مجموعة من الفرسان المسلحين بأسلحة خفيفة ، وعلى الرغم من أنه لم يستطع تحمل مطالب الملك ، برضوخ رجاله له ، إلا أنه اعتقد بأن هذه الموافقة قد تكون خدمة للرب ، علما لو أن الامبراطور كان مسيحيا حقا لكان ملزما بخدمة الرب دون أية مطالب لنفسه ، لكنه قال بأنه كان يخشى شعبنا ، الذي صارت لديه خبرة ومعرفة به وبمملكته ، وإذا لم يؤكد له مرة أخرى حسن نواياه ويعطيه مثل هذه الضمانة ، فسيجرد من جميع الامتيازات الممنوحة ، ولما كان الملك مندفعا ، يريد الاسراع في زحفه ضد « الكفار » فقد آثر أن يغير مواقفه الثابتة ويعدلها كيما يتماشى مع رغبات الامبراطور ، بدلا من أن يتأخر عن تأدية الخدمة للرب بأية وسيلة كانت .

ولذلك جرى اعداد الاتفاقات فور اجتماعهما ، وقد نصت على الا يأخذ الملك من الأمبراطور أي حصن أو بلدة خاضعة لادارته وقانونه ، وتبع هذا المطلب المعقول والمتواضع وعد لا يقل عنه كرما ، لكنه كان وعدا كاذبا ، بذله لأنه ـ أي الامبراطور ـ رأى لزاما عليه تقديم عرض من شأنه أن يشكل نظيرا لموافقة الملك على السلام ، لذلك أضاف إلى ما سبق أنه سيرسل إثنين أو ثلاثة من كبار بطارقته (نبلائه) للسفر مع الحملة لارشاد الملك إلى الطريق الصحيح ، وتأمين سوق مناسب في أي مكان ، وفي حال عدم توفر السوق ، سيسمح لجيش الملك ، عن رضى ، بسلب القلاع والاستيلاء على المدن ، وعندما يتم الحصول على الغنائم ، يجب ترك المواقع دونما احتلال .

وفي ذلك الحين كان الملك روجر صاحب أبوليا يشن بإلحاح واصرار هجوما ضد الامبراطور ، ويقوم باحتلال أماكن عدة من بلاده ، ولو أن الامبراطور استطاع أن يفوز بملكنا للتحالف معه ضد روجر ، لكان قد جاد عليه بكل ما في خزينته من كنوز ، ولكن بما أنه لم يستطع التأثير عليه ، سواء بمواصلة الطلبات ، أو بالوعود التي لا يوثق بها ، لذلك فقد دخلا في حلف فيما يتعلق فقط بالشروط المشار إليها آنفا ، وفي نهاية الأمر عندما قدم البارونات ولاءهم ورضخوا ، وعندما شرفوا بتقديم الهدايا إليهم وإلى الملك ، وهي هدايا كانت امبراطورية من حيث الكرم والحجم ، سارع لويس إلى اللحاق بجيشه ، وتلطخ الملك غير الورع بمخالفة الأيمان ، لكنه استراح من كابوس الخوف ، فبقي في الخلف ، ومنح السوق لبضعة أيام فقط ، ولم يرسل المرشدين الذين كان قد وعد بهم أبدا(١٤٥)

وفي ذلك اليوم شهدت الشمس جريمة لا تطاق ، لكن تلك الجريمة يجب الا تعتبر على أنها تعادل خيانة الرب ، حيث أن نصف الشمس قد شع بالضوء على العالم ، وحجب النصف الباقي نفسه ، وهكذا بينما كان الجيش يتقدم بدون الملك ، ورأى الشمس على هذا الشكل ، أي شكل نصف رغيف من الخبز ، معظم النهار ، خشي بأن

يكون الملك ، الذي كان يشع أكثر من الجميع بالايمان ، وينضح بالاحسان ، ويتمتع بسمو إلهي ، بسبب الرجاء(١٤٦)اقد جرد من جزء من نوره ، وذلك بشر الاغريق وخداعهم ، وليس هذا فحسب ، بل هناك شيء آخر يثير الأسى على حد سواء ، فقد حدث أن الامبراطور الألماني الذي خانه دليله وتخلى عنه في الممرات الجبلية الضيقة ، أجبر على الانسحاب والتراجع بعد أن لاقى الآلاف من اتباعه حتفهم بسهام التركمان ، كما سنروي خبر ذلك فيما بعد ، ولاننا علمنا فيما بعد بمعناها ، فقد قمنا بتفسير الظاهرة السماوية على وجه اكثر دقة قائلين إن ملكنا والامبراطور الألماني كانا شمسا واحدة ، بما انهما كانا يشعان بايمان واحد ، وإن نصف الشمس شع بالضوء ، في حين حجبت اشعة النصف الآخر ، لأن الألمان قد تراجعوا في حين مضى الملك متابعا مسيرته بحماسته نفسها ، وغيرته المعتادة.

نهاية الكتاب الرابع

بداية الكتاب الخامس

القسطنطينية مدينة متغطرسة بثروتها ، غدارة بممارستها وفاسدة بايمانها ، انها تخشى كل واحد على حساب ثروتها ، والجميع يخشونها بسبب خداعها وعدم اخلاصها ، ولو لم تكن تتسم بهذه الشرور لكانت مفضلة على جميع الامكنة الأخرى ، سيما ومناخها معتدل ، وتربتها خصبة ، وموقعها مناسب تماما للتبشير بالعقيدة ، وفي حقيقة الأمر إنها تسيطر على ذراع القديس جرجس ، الذي هو في الوقت ذاته حوض مائي يحتوي على الوفير من الأسماك والملح ، وهو أشبه بجدول صغير ، لدرجة انه يمكن عبوره بسهولة وأمان بمعدل سبع أو ثمان مرات في اليوم الواحد .

وتعتبر رومانيا (بيزنطة) بلادا مترامية الأطراف ، تعج اراضيها بالعديد من الجبال الوعرة ، وهي تمتد حتى أنطاكية في الجنوب وتحدها تركيا من الشرق ، وعلى الرغم من أن الأخيرة كانت تخضع سابقا للقانون الاغريقي ، فإن التركمان يمتلكون الآن الجزء الأكبر منها ، فبعد طردهم الاغريق أخلوا قسما جديدا من الاراضي ، ولكن بما أن الاغريق مازالوا يتمسكون بالقلاع نجد كلا الشعبان يقتسمان ريع المحاصيل ، وقد استرد الاغريق بعض الاراضي واحتفظوا بها ، وهي تلك التي احتلها الفرنجة ، ذلك أنهم لم يحتفظوا بها ، لانهم كانوا يسعون للوصول الى القدس (١٤٧) ، وكان يمكن ان يفقد هؤلاء الكسالى كل شيء لو لم يدافعوا عن انفسهم عن طريق استيراد الفرسان واستئجارهم من امم مختلفة ، وهكذا انهم يكدسون الذهب ، لكي يفتدوا انفسهم بالذهب ، ومع ذلك كانوا دائما يخسرون(لكن بما انهم يملكون الكثير لايمكن ان يخسروا كل شيء دفعة واحدة) لأن المرتزقة لايكفون لحماية

شعب(١٤٨) ، ليست لديه قواته الذاتية ، وقد أظهـرت لنا نيقـوميديا هذا بادىء ذي بدء ، فهي قائمة وسط الأشواك والأحراج ، وتشهد آثارها المقفرة على مجـدها الغـابر ، وعلى كسـل سـادتها الحاليين ، وانعدام نشاطهم ، وهكذا انعدمت فائدة المصب البحري الذي ينتهي في المدينة بعد ثلاثة أيام مـن انبعـاثه مـن الذراع رغم توفيره لها مزية النقل الجيد .

ومـن تلك المدينة كانت هناك ثـلاثة طـرق(١٤٩) تـؤدي إلى انطاكية ، لم تـكن متسـاوية في الطـول أو متشـابهة في الطبيعة ، وكانت اقصر تلك الطـرق ، الطـريق التـي تقـع الى اليسار ، فهي لو انها لم تكن تحتـوي على تعـرجات كبيرة ، لكان بالامكان قطعها بثلاثة اسابيع ، فبعـد اثني عشر يومـا تصل الى قونية عاصمة السلطان ، وهي مدينة بالغة الجمال ، ثم تسير بعـد خمسة أيام من عبـورك لتـركيا في أرض الفـرنج ، وهنا يسـتطيع الجيش القوي المؤمن بعقيدته وأعداده أن يسقط من حسابه كل ذلك إذا لم يكن منذرا في أيام الشـتاء بسـقوط الثلوج التـي تغـطي الجبال .

أما الطريق التي تؤدي الى الجهة اليمنى ، فأكثر غنى ، وأعظـم سلامة ، ولكن باتباع هذا الخط الساحلي المتعرج يحتاج المسافرون الى ثلاثة أضعاف المدة ، ذلك أنه يتوجب عليهم عبور أنهار وجداول متدفقة ، ويستلزم الحال خشيتها في الشـتاء مثـل خشـية الثلوج والتركمان على الأولى .

أما الطـريق الوسـطى فتتحلى بميزات ومسـاوىء الطـريقين الأخيرين ، فهي أطول من القصيرة واكثر سـلامة ، وهـي أيضـا أقصر من الطريق الساحلية إنما أفقر منها ، لذلك تفرق الألمان الذين سبقونا وتشـتتوا ، وكان السـواد الأعظـم مـن الألمان ، بقيادة الامبراطور ، قد اتبع الطريق اليسرى ، عبر قونية ، ولسوء الطالع

(١٥٠)اتبع البقية مع أخي الامبراطور الطريق اليمنى ، وتابعوا المسير ، فطالهم سوء الطالع في كل مجال وزاوية فيه ، وبقي الآن الطريق الأوسط ، الذي يخفف من مساوىء الطريقين الآخرين ، من نصيبنا ، وذلك بعد أن وقعت علينا اشاعات الاغريق محرضة كضرب المهماز بأن نسير على خطى الألمان ، زحفنا مخلفين نيقية الى اليسار ، وخيمنا في البداية قرب بحيرة نيقية ، وبينما نحن هناك وصل فجأة بعض النبلاء الألمان (١٥١) الذين كانوا قد أرسلوا خلف الملك من قبل امبراطورهم ، وافادوا والأسى يعتصر قلوبهم ، بأن الألمان خلافا لرغبتنا كانوا قد فروا ، وعادوا الى نيقية .

ومان سمع رجالنا ذلك ، حتى حل الأسى بهم ، ونال من قلوبهم فذهلوا ، لأن مثل هذا الجيش القوي قد أخفق بصورة مفاجئة ، وحقق أعداؤنا ، وأعداء الرب ، انتصارهم على حلفائنا بسهولة ، وقد سئل الألمان عن كيفية وطريقة وسبب سوء الطالع الكبير هذا ، ولعل جميع تلك التساؤلات قد أجريت على نحو غير موائم ، بما أنه ليس هناك في الحقيقة من ضابط للفوضى ، ولا انفراج ولاطريقة ناظمة للامنطقية ، ومع ذلك فإن لكل شر بداية ونهاية كما قال لنا أولئك الذين استطاعوا أن ينجوا من هذه الكارثة ، وقد اتهموا أنفسهم – وهم محقون في ذلك – لأنهم اغتروا بأنفسهم وبالغوا الثقة بقواهم الذاتية ، وكانوا غالبا مايخالفون الرب ، أكثر من المعتاد بحد كبير ، ثم إنهم لعنوا « وثن » القسطنطينية ، الذي بإعطائه اياهم دليلا خائنا ، إنما فعل كل مافي وسعه للقضاء على الايمان المسيحي ، وتقوية « الوثنية » وتشجيع « الكفار » ، وإطفاء حماسنا المتقد ، لأنه عندما أرشد الألمان من قبل دليلهم الى نيقية ، أمرهم بعد ذلك بتزويد أنفسهم بما يكفي من الامدادات الى قونية ، وأثناء الزحف ، اعتقدوا عندما أوشكت الأيام والأطعمة على الانتهاء بأن الطريق لابد مشرف على الانتهاء ايضا ، لكنهم في مواجهة قمم الجبال لم يعد بوسعهم سوى التساؤل : متى وأين (١٥٢)

ياترى سينتهي الطريق ؟ ومع هذا قادهم مرشدهم (لابل الأصح أن نقول جانرهم) بعيدا عن السبيل ، وزاد عناؤهم وتضاعف من صباح الى آخر حتى اليوم الثالث واندفعوا في الجبال التي لايمكن سلوكها ، حيث لاطرق فيها ، وهنا بعدما ساور الخائن الاعتقاد بأن الجيش قد دفن حيا ، فر تحت جنح الظلام عبر طريق مختصرة كان يعرفها ، وأحضر حشدا كبيرا من التركمان الى الفريسة ، لذلك حدث في فجر اليوم التالي ، عندما كان حملة الرايات الذين يتقدمون الجموع ، غاضبين لتأخره ، يتطلعون كما جرت عادتهم الى دليلهم ، لم يجدوه ، بل فجأة وجدوا التركمان ، بدلا منه ، وقد احتلوا قمم الجبال ، وحزن هؤلاء الرجال كثيرا لأن الرجل الذي كانوا يبحثون عنه قد فر دون أن يتلقى الجزاء الذي استحقه لجريمته التي اقترفها(١٥٢).

وقد أحيط الأمبراطور علما بهذه الحقائق ، ليس عن طريق عودة رجاله فحسب ، وإنما بنور الشمس أيضا ، ولذلك دعا مجلس بلاطه للاستشارة ، لكن بعد فوات الأوان ، فقد تعين عليهم الآن أن يختاروا ليس بين الخير والشر ، بل أهون الشرين (١) ، كان يتعين عليهم التقدم أو التراجع ، بيد أن الجوع والعدو ، والجبال الشاهقة المهولة المجهولة الشائكة بمتاهاتها حالت دون تقدمهم ، كما أن الجوع وخشية العار قد حالا دون تراجعهم ، وعلى أية حال ، فقد كان لهم في التراجع أمل بالنجاة ، ولو أن ذلك كان أمرا يكتنفه الخزي والعار ، فقد كان في تقدمهم موت دونما جدوى أو شرف مؤكد ، ترى ماذا تفعل بسالتهم الجائعة اذا ، ترى هل ينأوا بأنفسهم عن خدمة الرب ، وهم لم يعتادوا على أن ينأوا بأنفسهم بمحض إرادتهم ، وترى هل سيمضي أولئك الذين يتمكنون من خدمة الرب ، اذا سلموا ، الى الموت هناك عبثا ؟ من المؤكد انهم كانوا يفضلون موتا مجيدا على حياة الذل المزرية ، بيد انه إذا كان الذل يلطخ كلا الخيارين ، فمن الأفضل أن يحافظوا على انفسهم بذل ، بإتخاذ عمل فوري ، بدلا من أن يموتوا موت الاذلاء ، ولو كان ذلك دونما تأنيب ، وهكذا مستسلمين لهذه

الاعتبارات ، فعل الألمان مالم يفعلوه عادة ، فأدانوا التراجع ، في الوقت الذي وافقوا عليه ، بما أن الوقت كان يستدعي الاصلاح (١٥٤) ، وإعادة التشكيل ، لذلك فقد فعلوا ماااستطاعوا فعله ، وتمنوا ماتعين عليهم ان يتمنوه (١٥٥) و هكذا تسلح الجميع و استعدوا لأن يتحملوا الجوع (بما أنه لم يكن لديهم سوى الخيول الهزيلة و الميتة ليأكلوا) و حمل الكونت برنارد (١٥٦) سلاحه مع بعض من رجاله فقط بغية الاشتباك مع العدو القادم ، وبينما نظموا انفسهم على هذا النحو ، أطال الناس الرحلة بالمحاولة للحصول على الطعام ، وأحط الجوع والجهد قواهم ، واخذ التركمان يختبرون الصليبيين تدريجيا ، ولما بدا ضعفهم واضحا أخذوا يضيقون عليهم بشدة من يوم ليوم ، وفي نهاية الأمر ، بينما كان الكونت برنارد ، الذي يستحق أن يمدح وأن يبكى ، يسهر على المر هقين ، ويقدم الدعم للضعفاء ، عبر الجيش أحد الجبال ، لكنه بقي هو على الجانب الآن لأن الليل كان قد شارف على الحلول ، وعندئذ أحاط به الأتراك هناك ، وأخذوا يطلقون عليه السهام ، فقتلوه دون أن يلحقوا بأنفسهم الأضرار ، قتلوه بأسهل مما كانوا يأملون ، لأنه لم تكن لدى ذلك الرجل لاقسي ولانشاب ، كما أن الجوع والتعب قد حرما فرسانه من الخيول السريعة ، ولم يكن التركمان يرغبون بالعراك وجها لوجه وبالأيدي ، ولم تكن تتوفر لديه الأسلحة التي تمكنه من أن يصد الهجوم الذي يشن من مدى بعيد ، كما أن الخيول المنهكة لم تكن قادرة على حمل فرسانه ضد العدو ، وأما الذي يستحق أن يبكى ويندب كثيرا فهو قدر أولئك الشباب الذين كانوا كلهم حيوية ونشاط ، أولئك الذين واجهوا الموت في منتصف الطريق بدلا من أن يواجهوا رجال العدو الذين كانوا يسيرون على جناح السرعة ، وبجرأة منقطعة النظير لملاقاتهم بسيوفهم وترستهم التي كانت من جلود الأغنام ، ذلك أنه عندما سبق للحبر الأعظم أن حظر استخدام الكلاب والصقور ، وحدد نوعية أسلحة الفرسان مع ثيابهم (١٥٧) ، قام الرجال الذين لم يوافقوا على هذه

الأوامر ، بالعمل في حالة انعدام للحكمة والتجربة ، تعادل الحكمة والتجربة في أوامره ، فحبذا لو أنه أمر الرجالة وعاملهم بنفس الطريقة ، وأصر على بقاء الضعفاء في ديارهم ، وألزم بتجهيز الأقوياء بالسيوف جميعا بدلا من الحقائب ، وبالقسي بدلا من العصي ، لأن الضعفاء ومن لاحول لهم ولاطول يشكلون دائما عبئا على رفاقهم ، كما يشكلون مصدر صيد ثمين لأعدائهم .

وأخذوا يبحثون في اليوم التالي عن الكونت ، الذي غالبا ماكان يدافع عن شعبه دون مساعدة الآخرين ، وقد علموا بأنه لم يتأخر في القدوم الى الجيش ، لكنه لقي ورجاله حتفهم على أيدي جند التركمان من حملة القسي ، وبما أنهم كانوا يعتمدون الى حد كبير على قوته وحكمته ، وبما أن موتا مماثلا كان يهددهم جميعا ، بكى كل واحد منهم منيته ، وحمل السلاح كل من كان قادرا على ذلك ، ومضوا مسرعين ينهكهم الجوع أكثر من أي وقت مضى ، ويهددهم العدو ، وحقيقة الأمر ان التركمان ادراكا منهم انه ليس لدى الصليبيين قسي أو خيول سريعة ، لم يعتر قلوبهم أي خوف ، وعندئذ لم يقوموا باغاراتهم على المؤخرة فحسب ، بل وجهوا سهامهم نحو المقدمة ونحو قلب الجيش ، إنه ليس بوسعي أن أصف مدى الخسائر التي مني بها الألمان في تلك الرحلة ، فالامبراطور ذاته قد جرح بسهمين (١٥٨) وبينما كان بقية الأقوياء يمضون بسرعة ، تخلف الضعفاء في المؤخرة ، ووسط خضم من الفوضى والاضطراب سقط وابل من السهام ، فقتل العديد من الرجال العزل ، وبعد عناء وصل بقية الألمان أخيرا ، وهم يعانون سكرات الموت ، وصلوا الى نيقية(١٥٩)، وهناك اندفع الناس الجائعون نحو الحصول على الطعام ، واستغل الاغريق ظروف الحاجة الشديدة للطعام هذه ، فباعوه حسب الأسعار التي أرادوا ، أو رغبوا بها ، وطلبوا الثمن سيوفا ودروعا بدلا من الذهب ، واستهدفوا بذلك تجريد الجيش من أسلحته ، وذلك رغبة منهم في إعادة العساكر الألمان الى أوطانهم ، ومضى السواد الأعظم من الجيش الألماني بعدما نفدت قواهم وفقدوا ممتلكاتهم ، الى

القسطنطينية ، لكن قبل أن يستطيع هؤلاء القوم الحصول على كل من السوق ووسائل العبور ، كان الجوع قد أودى بحياة أكثر من ثلاثين ألفا من الرجال ، حسبما قيل لنا (١٦٠) ، غير أن الامبراطور المجرد من الراحة الجسدية والنفسية ، إنما الواثق بمساعدة المشيئة الربانية له ، سارع الخطى في المضي في أعقاب الملك ، بقلب مثابر ، باغيا الترافق معه في خدمة الرب ، وأرسل المبعوثين أمامه ، فقابلوا الملك ـ كما سلف وذكرنا ـ عند بحيرة نيقية ، وسردوا له أخبار جميع الوقائع التي كنا قد وصفناها ، وطلبوا منه التوجه الى مقابلة الامبراطور الذي كان قادما في إثرهم ، وأن يكون على استعداد لتقديم العون والمشورة له ، في وقت حاجته لذلك (١٦١) .

وحزن الملك شديد الحزن للضرر الذي لحق بحليفة ، كما لو لحق به شخصيا ، وتوجه نحوه مسرعا ، يرافقه العديد من أعيان رجاله ، وتغمره العاطفة ، واستمع لمطالبه (١٦٢) ، وجامل كل منهما الآخر ، وتبادلا القبل التي صاحبتها دموع التقى ، وأخيرا قررا بأنه يتعين على الملك أن ينتظر الامبراطور في قلعة لوبار (لوباريوم) كما تعين على الامبراطور ان يتبع الملك بسرعة ، بعد أن يحصل على الامدادات من نيقية .

ومنذ ذلك الحين بدأ الاغريق بسحب سوقنا ، غير أن الفرنجة لم يستطيعوا تحمل رؤية الكثير وهم في حاجة ، وهكذا قام بعضا منهم ، عند انتشارهم في المناطق الريفية بالاستيلاء على ماكان حري بهم أن يشتروه ، واشترى آخرون تلك الغنائم منهم ، وكأنهم كانوا أكثر صوابا ، لو انهم عاشوا على نفقتهم الخاصة ، بأية طريقة كانت ، وهكذا وصلوا الى لوبار حيث انتظروا الألمان هناك ـ حسبما سبق الاتفاق ـ وحدث أن الألمان الذين كانوا يتبعون الفرنجة جردهم الاغريق من الحياة والمقتنيات بشكل يومي ، ونغصوا عيشهم تماما (١٦٣) « وأكلوهم تماما كما أكل الجراد الطيار ما خلفه الجراد الزحاف »(١٦٤)، وفي النهاية عندما لم

يعد بمقدور الامبراطور الخائر القوى هو ورجاله أن يهـربوا ، رغم قلة أعدائهم ، مضوا يقـاومون بشـجاعة وتعـاسة على طـول الطريق ، وتابعوا زحفهم بصبر وثبات وشـجاعة ، أمـا بـالنسبة للفقراء ، فقد هربوا ولحقوا بركب الملك ، ذلك أنه لم تعقهـم عوائق الأمتعة والمقتنيات ، ولم يكن لديهـم مـايخشون عليه السـلب ، أو يطمع به ، لأنهم كانوا معدمين .

وطلب الامبـراطور الألماني ، مـن الملك الفـرنسي ، في رسـالة وجهها اليه ، الاجتماع به على وجه السرعة ، وأن يخف نحوه مـع قوة عسكرية من شأنها القيام بدفن الألمان ، والحفـاظ على بـريق الحياة المتبقـي لدى أولئك الذين ظلوا أحياء ، بصـورة جـزئية ، واسـتجابة لذلك ، وبناء على طلب الملك الملح ، أسرع مفوض الجيش ريفـو صـاحب نيسـل ، كونت سـواسون ، الى العمل ، فطرد جماعات الاغريق ، وحرر بسهولة الألمان الذين كانت قواهم قد استنفدت ، وفي حقيقة الأمـر ـ كمـا قـال الألمان فيمـا بعـد ـ لو لم يأت الكونت على جناح السرعة ، لكانوا قد واجهوا جميعا موتا محتوما ، لكن ياللتعاسة ، وياللحظ العـاثر الذي حـل بالسكسون ، وبالباتافيين ، وبالجرمان الآخرين الشجعان ، هؤلاء الذين نقرأ عنهم التواريخ القديمة ، وعن شجاعتهم التـي خشـيها الرومان في الماضي ، قد تلاشت الآن شجاعتهم بسـبب غدر الاغريق المشركين ، وسيأتي الوقت المناسب الذي سنسجل به أخبار سقوط الفـرنج أيضـا ، وسـيصبح الأسى المزدوج أمـرا غير محمول ، وسيكون لكلتا الأمتين دائمـا شـيئا تندبـه ، وأنه اذا لم ينتقم ابناء أولئك الرجال لموت آبائهم ، ولنا نحن الذين عانينا مـن أعمال الاغريق الشريرة ماعانينا ، ان العدالة الربانية ، مع حقيقـة أن شعبنا غير معتاد على تحمل الأذى والخـزي طـويلا ، يعـطياننا الامل بالانتقام ، وهكذا تمكنا من اراحة قلوبنا الحزينة ، وسنتابع طريقنا التعيسة حتى تدرك الأجيال المقبلة أفعال جمـاعات الاغريق وغدرها العظيم .

وعليه عندما وصل الامبراطور محاطا بحرسه الى معسكر الملك ، أقام على ضفة نهر صغير ، فعبر الملك ذلك النهر على ظهر قارب ، وهو تتملكه روح التقى ، وفي عينيه دموع القوة ، وسار مشيا على قدميه كي يهدىء من روعه ، وتلقى الامبراطور كلماته بارتياح ، كرجل وصل الى شاطىء الأمان بعد تحطم سفينته وطلب منه بمنتهى التواضع ، عددا كبيرا من الأمور التي كان يحتاجها ، وبدأ يخاطبه على هذا النحو ، كاشفا النقاب عما عاناه ، قائلا بكل هدوء:« سيدي الملك ، من اختارته الطبيعة ليكون جارا لي وصديقا ، ومن حفظه الرب ليحميني وقت الحاجة ، إن لقاءنا هذا لا أقصد منه الحديث عن سوء حظي ، لأنه من غير الضروري ، أن أضع أمام ناظري أي كان ما قد رآه فعلا ، إنها أفعال شريرة حقا ، لذلك أريدك أن تدرك أنني غير مغتاظ من الرب ، ولكنني غاضب على نفسي ، لأن الرب عادل ، أما أنا وشعبي فحمقى ، فعندما قدت جيشا لجبا عظيم الثراء ، عندما قدته من مملكتي لو أنني تقدمت آنذاك بامتناني لواهب الأعمال الخيرة ، لربما كان قد حفظ لي ما وهبه ، ولو أنني أصلحت طريقة حياتي الحالية ، وغيرت سلوكي لدى دخولي البلدان الأجنبية ، وتخليت دونما أسى عن ماضي ، لما كان الرب قدد أنزل عقابه بي ، بشأن أخطائي التي أستحق التوبيخ عليها ، وعندما أفكر بالانتصارات التي كنت قد حققتها على التركمان ، أخرج بمحصلة مفادها إنه لو لم يركب الغرور راسي بسبب جيشي الكبير ، ولكن وضعت أملي في رب الحشود ، لما كان الرب أذل غطرسة غير موجودة أصلا ، علما بأنني والحمد له ، ما زلت حيا أمتلك الثروات ، وأرغب بشدة في خدمته ، لأنني أعتقد أنني ما كنت لأبقى ، وأنجو من العديد من المخاطر ، وأظل غنيا ، دون أن ينالني أي أذى ، ولما كنت قد حصلت على مساعدتكم أنتم في ساعة الموت ، لولا أن الرب قد قدر بأنني ما زلت أستحق أن أقوم بخدمته ، ولذا لا تساورني الرغبة بأن أنفصل عن مرافقتكم منذ الآن ، أو عندما ألقى القبول من جانبكم ، أن أوضع إما في الأمام أو في الخلف ، ذلك أنني لا أستطيع مناجزة

العدو وصده في المقدمة ، أو مقاومة الأعداء الذين يلحقون بنا ، دون إلحاق الأذى بالجنود في القلب ، وبهـذه الاسـتثناءات دع خيامـي تنصب حيث ترغب ، وإنني أطلب أن تكمل أعداد جنودي برفاق مـن قبلكم » .

وعندما أنهى الامبراطور حديثه ، وقد أخذ الحزن منه كل مـأخذ ، وكان أسقف متـز يتـرجم له تـرقرقرت الدمـوع في أعين الجميع ، واكتوت قلوبهم بالأسى ، وقام الملك بناء على نصيحة بـاروناته مـع الأساقفة باصدار امر ببقاء كل من عمية : كونت موريين ، ومـركيز مونتفرات ، وأقاربه ، وأسقف متز ، وأخوه كونت رينالد وآخرين ، مع الامبراطور ، وهكذا أصبح بوسعه إعداد الخطط المناسـبة مـع الامبراطور ، وقرر أيضا أن يعسكر هو والامبراطور معا .

نهاية الكتاب الخامس

obeikandl.com

بداية الكتاب السادس

وهكذا قام الملك مبديا غاية التقـديـر للامبــراطور ، ومعــاملا إياه معاملة سامية ، بسبب سوء طالعه ، فأمر بتغيير معسكره ، وتحول الى قلعة اسيرون ، وذلك بعد عيد القديس مــارتن (١٦٥) ، ولكن في الوقت ذاته عندما كان حزن الامبراطور جديدا ، وعندما كان لايزال يتذكر مساعي الملك الحميدة ، مضيت الى الملك ، وكشفت له النقاب عما كان الامبراطور يلحق به من اذى وبالقديس نيذس فيمـا يتعلق بايسلنجين وقلعة ايستوسين (١٦٦) ، وذكرته بـالحرمان الذي نزل به كعقاب على هذه الأعمال التي قد ســمع البـابا يبشر بهـا في عيد الفصح ، والآن وبعد أن ابتهج الملك بـالفرصة التـي ســنحت له ، لخدمة القديس ، لم يتقاعس ، بل على العكس من ذلك أمــر أن يبين إليه أولئك الذين كانوا يشغلون تلك الأمـكنتهنا وهناك ، فـكان أن أجبته بأن الامبراطور نفسه كان يشغل برجا في القلعــة ، وأن الدوق فردريك (١٦٧) ، الذي كان معنا ايضا ، احتل هـو البــرج الآخــر ، كمـــا انه بسط سلطانه المطلق على ايســلنجين ، ومــا أن ســمع الملك بهــذا الأمر ، ثم سمع به رجاله ، حتــى بـادر بـالتوسل لكل مــن كونراد وفردريك ، أولا بصورة افرادية ، ثم علنا فيمـا بعــد ، وملحــا على أصدقاء الامبراطور ، ومجددا اصراره حول القضية ، فقد طلبهمــا كمعروف لنفسه ، وألح على ذلك كوسـيلة لارضــاء الرب والشــهيد المجيد ، وقد أجاب الامبراطور باديء ذي بـدء بغمــوض ، لانه كان يأمل بأن يتخلى الملك عن هــذا المطلب إذا مــا تعــرض للضــيق والسأم ، بيد أن الملك لم يتنازل عن طلبــه المشرف والورع ، إلى أن يظهر الامبراطور إلى أي مدى كان غير ممتن للمساعدة التي قــدمها له ، وكيف أنه لا يتراجع عن الخطأ ، وعلى الرغم من أن هــذا ليس جزءا من موضوعنا ، يا نيافة الأب سوكر ، إلا أنه من المناسب لكم ان تدركوا انه بوسعكم ان تصلوا بخشوع من اجل مــن كان يظهــر

لكم الاذعا ن عندمـــا يكون بحضرتـــك ، ويرعى مصـــالحكم أثناء غيابكم

ومضى الآن الملك يزحف حثيثا إلى فيلادلفيا ، كما كان قد خـطط ، وكان يؤدي إلى ذلك المكان طريق عريض ، يمكن قطعه بثمانية أيام ، لكنه كان طريقا مزودا بشكل كاف من الامدادات وعلما منه بـذلك ، قام الامبراطور ـ بشـكل غير ذكي ـ بـالقاء كلمــة أمــام الملك وبارونـاته ، ولعله أرادنا في خطابه ـ بمعـرفة أو بـلا معـرفة ـ أن نشرب من كأس تعاسته (١٦٨) فقال:« انه كما ينبغـي على الرجـل القوي تقليد الأعمال الجريئة ، كذلك يجـب على الرجـل العـاقل ان يتيقـــــــــــــــــظ مـــــــــــــــــن سوء طالع رجل آخر ، فعلى الرغم من أنه كان لدي في الآونة الأخيرة جيشا يصعب على أي قوم كفرة مقاومته ، فقد استسلم ذلك الجيش عندما قهره الجـوع ، اسـتسلم إلى أولئك الذين كان بمقـدوره أن يسيطر عليهم ، لو أن الامدادات كانت قد قـدمت إليه ، وإننا الآن في الحالة ذاتها ، فعلى الرغم من أنكم لا تخشون قوة أي شـعب كان ، إنكم مع ذلك لا تمتلكون السهام التي تقهر الجـوع ، انظـروا هناك طريقان مفتوحان أمامكم : أولهما أقصر من الأخرى ، لكنها هزيلة الموارد ، وأما الثانية فهي أطول ، غير أنها أكثر بـالامدادات ومـن المؤكد أنه أفضل لكم أن تعيشوا لمدة طويلة وسط الخير العميم ، من أن تنتهوا بسرعة وبخزي وسط الحاجة ، ومـن الأفضـل التـأخر وسط الوفرة التي يبقى الجيش خلالها قويا ، بدلا من اعادة تـرميم جيش منهار القوى يتضور جوعا أو بعثه للحياة ، لذلك فإنني أتوجه إليكم بنصيحتي كي تسلكوا الطريق الساحلي وأن تحافظوا على قوة فرسانكم من أجل خدمة الرب ، حتى وإن كانت تلك الخدمة متـأخرة إلى حد ما » .

ولقد أعار الملك انتباهه إلى هذا الخطاب (١٦٩) الذي كان أكثر قابلية للتصديق بيانيا مما كان عليه من حيث الواقع ، لأن مصيره كان على الفور أن يركب المخـاطرة ويتحمـل الاضرار ، وأن يصـل في اليوم

الثالث إلى مرفأ ايدريميد ، الذي كان جزء من الجيش ـ سلك الطريق مباشرة ـ قد وصله في نصف يوم ، وسبب تأخر الجيش ، أنه راغ عن الطريق إلى أحد الوديان ، وهكذا كان بينما يتسلق الشعاب ويطوف حول منحدرات الجبال الصخرية التي كانت تعترض طريقه ، لم يتمكن من الوصول إلى حيث كان يرغب ، وكان يقترب من السماء حينا ، ومن الجحيم (جوف الأرض) تارة أخرى ، ورأينا في صباح اليوم الثالث ، ووقع نظرنا على مجموعة من القرويين ، رفاق الوحوش المفترسة ، والقينا القبض على واحد منهم ، في حين تمكن الآخرون من الفرار ، واستطعنا بمساعدته أن نسير ذلك اليوم ذاته نحو ايدريميد ، إلى رفاقنا الذين كانوا في غاية القلق حول مصيرنا ، ولقد تكبدنا حقا أولى خسائرنا وأفدحها بين تلك الجبال ، ولما كانت حيوانات النقل لدينا قد لقيت حتفها ، فقد أغنينا سكان الغابة من الاغريق بالذهب والفضة والسلاح والملابس ، ولقد تحملنا تلك الخسارة بصبر ، أننا كنا قد نجونا بحياتنا ، لأنه كان في تلك المقاطعة سيل ملتو هائل السرعة ، كان يتوجب علينا أن نعبره ثمان مرات أو تسعا كل يوم ، ولو أنه كان قد اتسع قليلا فقط ، بفضل مطر معتدل ، لما كان بوسع أي كان أن يتقدم أو يتراجع ، بل كان على كل انسان أن ينتظر نهاية حياته ، ويندب خطاياه حيث كان . ورجعنا بعد ذلك إلى الخط الساحلي المتعرج ، لنواجه كل يوم تقريبا منحدرا وجبالا صخرية وعرة ، ومجاري للسيول الجبلية العميقة ، التي كان من الصعب عبورها ، حتى ولو كان الطقس جافا ، لأنها كانت مملوءة بمياه الثلوج أو الأمطار ، وكانت تياراتها من السرعة بحيث لم يكن لا بوسع الخيول ولا المشاة السباحة فيها ، وهناك وجدنا العديد من المدن التي كانت تعج بالأنقاض ، ومدن أخرى كان الاغريق قد أشادوها فوق سطح البحر القديم ، وحصنوها بالأبراج والأسوار ، وتمكنا من الحصول على الطعام من تلك المدن ، لكن بصعوبة في واقع الحال ، ومرد ذلك غالبا ما كان إلى غطرسة حشودنا الغوغائية ، ونادرا جدا ما كان مرده إلى جشع السكان ، وعليه لعل من لم يكن حاضرا ، قد يقول

أنه كان ينبغي الاستيلاء على تلك المدن ومصادرة البضائع التي لم يكن بالامكان الحصول عليها بسعر صحيح ، دون دفع ثمنها ، بيد أنه كانت للسكان أسوار و أبراج تحميهم ، وسفن راسية في المرفأ ، لتمكنهم من الفرار ، فما الذي كان بالامكان كسبه إذا ، لو أن رجالنا كانوا قد هاجموا مدينة وهرب سكانها ، ـ على حساب التأخير والحظر والقساوة ـ آخذين الحاجيات معهم ؟ ثم إن الأغريق كانوا يخفون حيواناتهم الزراعية في الجبال ، وبعد أن هجر الفلاحون منازلهم كانوا يبيعون الطعام من على ظهر السفن ، مما سبب ارتفاع الثمن ، أو رفعه من قبلهم كما رغبوا وطاب لهم ، وهكذا سلبوا الحجاج خلال تلك الرحلة المديدة ، ونهبوا منهم الفضة والذهب والسلاح ، والملابس ، وحيثما كان الحجاج يجدون المراكب كانوا يعتلونها دونما اكتراث بالخطر ذي الحدين ، ويستعدون للاندفاع إلى حيث خداع جماعات الاغريق ، وإلى حيث كانت تسوقهم رياح الشتاء العاصفة ، أما الآخرون الذين أودت بهم الظروف إلى العبودية ، فقد وجدوا من الأسهل لهم أن يبقوا في المؤخرة ، في خدمة جماعات الاغريق ، وعلي الا أخفي حقيقة أننا كنا قد عبرنا ثلاثة أنهر بسهولة ، مما أثار حيرة السكان المحليين ، وبعد أن عبرنا ، كان كل نهر يفيض على الفور بسبب الأمطار ، لذلك كان الأمر بمثابة أعجوبة ، حيث أنه خلافا للمعتاد من الوقائع ، كان الشتاء والمطر قد قاما بحفظنا(١٧٠)

ووصلنا اخيرا الى افسوس(عرب سريس) بعد بن قطعنا سميرنا(ازمير) وبيرغامون ، وكانت افسوس تشتمل على آثار من القرون الغابرة ، بين أطلال مجدها القديم ، مثل قبر القديس يوحنا الذي كان يقع على تلة ، وكان محاط بسور اقيم للحيلولة دون وصول الكفرة اليه (١٧١) ، وفي افسوس قابل الملك المبعوثين الذين يحملون الرسائل اليه من الامبراطور الاغريقي ، والذين ذكروا أن اعدادا لاتحصى من التركمان ، كانت قد احتشدت لقتال الملك ،والحوا عليه بأن يلتجأ الى القلاع الامبراطورية ، لكن بما ان الملك كان

يأنف – على حد سواء – من اظهار الخوف من التركمان والحاجة إلى أفضال الامبراطور ، فقد أبرز المبعوثون رسائل أخرى تستحق الازدراء ، ذلك أنها أرادت أن تبين الأضرار التي تسببت هناك من قبل الملك ، مع حقيقة أن الامبراطور لن يتمكن من الآن فصاعدا من كبح جماح رجاله عن الانتقام (١٧٢) ، وتابع الملك زحفه ، دون ان يتنازل ويتفضل بالرد على الرسائل ، ومضى في طريقه لأنه كان يرغب في الاحتفال بعيد الميلاد في وادي ديسيرفيون (١٧٣) ، ولما كان الامبراطور الالماني قد أسف لعدم مشاهدته امبراطور القسطنطينية ، عاد ليقضي الشتاء معه(١٧٤)

وعلى هذا ، في عشية عيد الميلاد ، بعدما كانت خيامنا قد نصبت في ذلك الوادي الخصيب ، حاول التركمان بقيادة الاغريق – للمرة الأولى – أن يأخذونا على حين غرة ، بمهاجمة خيولنا بينما كانت ترعى ، لكن فرساننا البارزين قطفوا ثمار النصر الأولى ، لمقاومتهم الباسلة ولشجاعتهم ، وذلك بقتل بعض التركمان ، وهكذا حققوا السلام للأيام المقدسة ، وبعد ذلك بينما كنا نعتزم البقاء للراحة وشكران الرب ، أغدقت السماء الداكنة علينا أمطار غزيرة ، وكأنها ارادتنا أن ننظف بالمشيئة الربانية قبل أن نتقدم ، لأن الطقس – كما أراد الرب – لم يكن باردا بعد ذلك أو ماطرا حتى وصلنا انطاكية (١٧٥) وهكذا جعلت الأمطار الغزيرة ، الجداول في الوديان تفيض بالسيول ، كما تكالت الجبال بالثلوج ، واكتست حلة بيضاء واخيرا بعد اليوم الرابع للمطر ، عندما توقف انهمار المطر وانقشعت السماء ، واصبحت صافية ، وتلاشت الغيوم ، خشي الملك من ان يحاصر مجددا بسبب نوبان الثلوج ، او سقوط المزيد من الامطار ، لذا غادرنا الوادي الكائن بالقرب من افسوس ، وذلك بعد الحصول على المؤن ، وتابع مسيرة الى لوديسيا .

وبين تلك المنحدرات الجبلية ، على تلك الطريق كان ينساب نهر مياندر ، الذي كان في العادة عميقا وعريضا ، وكان يومذاك مكتنزا

بالمياه التي كانت تصب فيه من الجدوال التي ترفده ، وكان مجراه قد شطر عرضانيا احد الوديان ، جاعلا الوصول الى ضفتيه امرا ممكنا لجمهور كبير من الناس ، وكان التركمان قد اعدوا قواتهم على الضفتين ، معتقدين ان البعض منهم يمكنه أن يعيق تقدم الجيش بالرمي بالسهام ، بينما يقوم اخرون بسد مخاضات النهر المكتنزة ، حيث يكون كلا الطرفين في امان اثناء التراجع ، بما ان الجبال توفر الملجأ ، وحالما وصلنا الى هناك اكتشفنا بأن العساكر التركمان كانوا قد استولوا على منحدرات الجبال الوعرة ، و أن بعض التركمان الآخرين قد تمركزوا في السهل لكي يغيروا على الجيش ، في حين أن البقية منهم كانوا قد احتشدوا على الضفة الأخرى من النهر ليمنعونا من العبور ، وجمع الملك الامتعة والضعفاء ووضعهم في الوسط ، ثم غطى المقدمة والمؤخرة والجوانب برجال مسحلين ومن ثم تابع مسيرة بامان لمدة يومين ، لكن ليس لصالحه كما يرام ، وفي الحقيقة قد اعاقة الاعداء باغاراتهم المتكررة على ميمنة الجيش وميسرته ، وذلك بالمكر والخداع ، وليس بالقوة ، لانهم كانوا مهرة ومحنكين في الفروسية ، وغاية في الجراة اثناء التقدم ، وحيث انه لم يكن بمقدوره تحقيق السلام معهم ، او ان يشتبك معهم في معركة ، لانهم كانوا يهاجمون بجرأة ، و يتراجعون بمهارة و انسياب ، فقد ركز جهوده على عبور النهر ، لكنه لم يكن يعرف مكان المخاضة ، وبما ان التركمان كانوا يسدون الطريق ، كان من الصعب عليه ان يحاول العبور بأمان ، وفي حوالي ظهيرة اليوم الثاني تجمع جزء من جيش التركمان في خلف جيشنا كما كانوا قد خططوا ، وبقي الجزء الاخر على طول النهر حيث اصبح المدخل الينا يسيرا والمخرج عسيرا في وجه التركمان الاخرين ، وعندها ارسلوا ثلاثة من رجالهم لاطلاق السهام علينا ، وبينما كانوا يقومون باطلاق سهامهم زمجرت كلتا المجموعتين بضجة متواصلة على الفور ، و فر رماة السهام على الطريق التي كانوا قد قدموا عليها ، واندفع على الفور الكونتات البارزين : هنري بن الكونت ثيوبالد (١٧٦) ، وثيودريك صاحب

فلاندرز ، ووليم صاحب ماكون (١٧٧) ، خلفهم كالزوابع ، وتسلقوا الضفة المنحدرة واخترقوا وابل السهام ، واحتشد التركمان على نحو اكثر سرعة مما يمكن وصفه ، كذلك قام الملك يساعده حظ مماثل ، فركب باقصى سرعة ، للتصدي للتركمان الذين كانوا يرمون السهام من المؤخرة ، ففرق قواتهم ، ومزق جموعهم ، ودفع نحو كهوف الجبال اولئك الذين مكنتهم خيولهم السريعة من الفرار ، وهكذا ادت كل هجمة من هجماتنا الخاطفة ، التي تمت بسهولة ، إلى زرع الميادين ، على طول الطريق الى اوكار الجبال بالجثث من رجال فرق التركمان ، وتم هنالك اسر واحد من الأمراء حيث اقتيد الى امام الملك ، وجرى استجوابه ثم قتل .

وعلى مقربة من ذلك الموقع ، قامت بلدة صغيرة من بلدان الامبراطور تعرف باسم انطوخيتا ، شكلت ملاذا للكفرة الهاربين وبذلك فقد حول . الامبراطور (مانويل) نفسه من خائن مراوغ الى عدو لدود (١٧٨) وكان باستطاعة الملك ان يهاجم البلدة ، لكي يقبض على الفارين المختبئين هناك ، لكن لم يكن لديه مايكفي من الامدادات ، ثم لم يكن بمقدوره الاستيلاء على أية غنائم أو مخلفات كافية من البلدة الصغيرة .

ولابد من الاشارة الى أنه كان هناك أناس قالوا بأنهم قد رأوا فارسا على المخاضة ، لم يسبق لهم أن رأوه من قبل ، وأنه كان هو الذي وجه الضربات الأولى الحاسمة في المعركة (١٧٩) وبالنسبة لي فيما يتعلق بذلك انني لاأود ان اخدع احدا ، أو أن أخدع من قبل احد الناس ، غير انني ادرك حقا انه في مثل هذه المضائق ماكان مثل هذا النصر الرائع والاسهل ليتحقق الا بمقدرة الرب ، وماكان وابل الحديد قد سقط من جانب العدو دون ان يسبب الموت او الجراح ، ومع ذلك فقد انعم الرب علينا بالنصر ، دونما خسارة باستثناء ميلو صاحب نوجينت (١٨٠) الذي غرق في النهر.

وعلى طول طريقنا كان التركمان والاغريق قد استولوا على

الأطراف ، وكنا ندرك أن كلا الشعبين عدو مشترك لنا ، وقام التركمان الذين كانوا يندبون قتلاهم باستدعاء رفاقهم من الجوار استعدادا للعودة والانتقام في اليوم السابع ، وبأعداد أكبر من الأعداد السابقة وبجراة وعزم أمضى ، ووصلنا لوديسيا في اليوم الثالث (١٨١) غير مبالين ، وذلك بسبب ثقتنا بأنفسنا ، وفي هذه النقطة بالذات لابد من ان أستعيد ذكرى الكونت برنارد ، الذي كان قد

أسلم روحه لباريها أثناء عودته مع الامبراطور من قونية ، أسلمها قربانا وفداء للأخوة ، لأنه في لوديسيا هنا بالذات ، ومع أسقف فريزنج ، شقيق الامبراطور ، وكان كونتا آخر يحمل الاسم ذاته قد نزل به القدر ذاته ، حيث لقي حتفه بخديعة مماثلة لانه على الرغم من ان قائد هذه المدينة كان عليه أن يرشد الألمان ويقودهم خارج الجبال ، الا انه أتى بهم في طريق ضالة والقى بهم في كمين تركماني وبعد أن كان الكونت والعديد من رجاله قد لاقوا حتفهم ، تمكن بعضهم الآخر من النجاة بأنفسهم بالهروب والاختباء (١٨٢) ، واكثر من ذلك ، هو ان القائد بالذات ، اما خشية من الملك بسبب جريمته التي اقترفها ، او لانه اراد ايقاع الاذى بطريقة أخرى ، قام باخلاء المدينة من كل سلعة ، وفي حين انه تحاشى القيام بعمل مخادع ، لأن ذلك كان مكشوفا تماما ، خطط لجريمة أخرى لاتقل ضررا ، فقد كان هذا الوغد الخسيس يدرك بأن الطريق كلها الى انطاليا ـ حيث كنا قد وصلنا بعد خمس عشرة يوما ـ خالية من الامدادات في أية بقعة منها ، وأن الجميع سيذوقون مرارة الجوع ، مالم يتم الحصول على الطعام لقاء ثمن ، أو عنوة ، من المدينة المخلاة(١٨٣)

وعليه استشار الملك الأساقفة والبارونات الآخرين حول تلك المسألة ، فهو على الرغم من أنه مامن أحد كان يشك بحكمته لم يكن ينقطع عن تنفيذ الأعمال ذات المصلحة المشتركة وفق نصيحة العديد من الناس ، وأن تواضعه كان من الحكمة بمكان حيث أنه أرضخ الواحد لرأي الاكثرية ، والشاب لرأي الشيخ ، وآراءه الخاصة الى

معرفة الناس من نوي الخبرة ، وكذلك جميع ماكان بوسعه ان يفعله كسيد ، وما كان يدركه كرجل حكيم ، فقد كانت عادته الكريمة الاعتماد على رعاياه ، ومهما يكن فان أولئك الذين اعتادوا على المحاججة في قضايا اخرى ، وعلى المخالفة بالآراء حول خطط مختلفة — وأحيانا بدقة لاجدوى منها — قد أخذتهم الحيرة ، لعدم وجود خطة مناسبة في تلك اللحظة ، وكوى الاسى قلوبهم ، لأنهم لم يروا مخرجا للخطر المشترك ، فلقد حاولوا العثور على الطعام في مدينة كانت قد أخليت منه عن قصد ، ومع ذلك فإن ما ابتغوه لم يكن متوفرا ، ورغم أنهم كانوا من القوة بما يمكنهم من الاستيلاء عليه ، ومن الغنى بحيث كانوا يستطيعون شراءه ، فان أي السيبلين لم يجد نفعا ، ومع ذلك كانت آراءهم تقضي بوجوب البحث عن المقيمين الهاربين في الممرات الجبلية ، وانه بعد اقامة السلام معهم يجب اعادتهم هم وامتعتهم ، وقد تم بصورة جزئية ، لانه تم العثور على المقيمين ، لكن لم يمكن اعادتهم.

وبعد اضاعة يوم واحد في هذا البحث مضينا في طريقنا ، يسبقنا ويتبعنا على الطريق كل من التركمان وجماعات من الاغريق ، وهناك في ذلك المكان حيث كانت الجبال لاتزال ملطخة بدم الالمان(١٨٤)، هناك بالذات ظهر اولئك الذين تولوا قتلهم ، وعندما رأى الملك ، الذي كان قد أنذر سلفا ، ولكن عبثا ، صفوف الاعداء ، وجثث الالمان صف جنوده لزجهم في المعركة ، وهنا حلت كراهيتنا الابدية على جيوفري صاحب رانكون(١٨٥)، وهو الرجل الذي كان قد أرسله امامنا مع عمه كونت مورين ، ففي حوالي ظهيرة اليوم الثاني ، وفر لنا جبل لعين — كان الملك قد خطط للسير فيه يوما كاملاً ، من أجل عبوره ، وعليه ، امانا بنصب خيامنا على سفوحه — مروراسهلا ، وعندما وصل رجال الطليعة الى هناك — على جناح السرعة ، لانهم لم يواجهوا مايعيق سبيلهم — تسلقوا الجبل ، غير متنبهين للملك الذي كان في ذلك الحين يقوم بحماية المؤخرة ، وبينما كان البقية يتبعونهم ، قاموا بنصب خيامهم على الجانب الآخر من النهر حوالي الساعة

التاسعة(١٨٦) ، وكان الجبل وعرا ، وشديد الانحدار ، وقد توجب علينا تسلق حافة منعزلة ، عالية الى درجة بدت معها قمتها وكأنها تلامس السماء ، وأن النهر الذي يتدفق في قلب الوادي ينحدر الى الجحيم ، وهنا أصبح الحشد مكتظا ، بينما كان افراده يتسلقون وتقدموا وتجمعوا سوية ، فوقفوا دون ان يفكروا بالفرسان ، وتشبثوا هناك دون ان يتقدموا ، وأدى هذا الى انزلاق الخيول التي كانت محملة بالتموين على المنحدرات الصخرية ، دافعة بأولئك الذين ضربوهم الى أعماق الهوة السحيقة ، كما أن الصخور المزاحة من أماكنها ، قد سببت الدمار ، وهكذا عندما تفرق الرجال في كل اتجاه سعيا في البحث عن ممرات ، خاف الجميع من أن يسيروا في الطريق الخطأ ، أو أن يصيبهم آخرون بشدة أثناء سقوطهم ، و أكثر من ذلك ، حال التركمان والاغريق برماياتهم دون نهوض الذين سقطوا ، وتجمع التركمان في مواجهة الجزء الآخر من جيشنا يهللون ابتهاجا بهذا المشهد ، على أمل أن يأتيهم المساء بمزيد من الفوائد ، واقترب النهار من نهايته ، وأخذت كميات بضائعنا الهائلة تتزايد في قاع الوادي ، ومهما يكن من أمر ، فان ذلك لم يكف أعداءنا ، بل على العكس من ذلك ، فقد أصبحوا أكثر جرأة ، فعبروا باتجاهنا ، لأنهم لم يعودوا في خوف من الطليعة ، فضلا عن أنهم لم يروا جند المؤخرة فطعنوا وضربوا بالبواتر ، وفر من استطاع من الحشد الأعزل ، بينما سقط بعضهم الآخر كقطيع الغنم ، ودوت الأصوات ، وارتفعت الصرخات تشق عنان السماء ، حتى وصلت الى مسامع ملكنا ، وعندها بذل الملك ماكان بوسعه بذله من جهود حيال تلك الكارثة ، ولم تأت مساعدة السماء ، اللهم الا بحلول الظلام ، وبذلك توقف الدمار .

وفي الوقت ذاته ، أرسلت الى المعسكر لانه كان بوسعي كراهب ، أن أتوسل للكونت واحضر الآخرين الى ميدان المعركة ، وقدمت هناك تقريرا عن الوضع ، فما كان من الجميع الا ان اندفعوا بكل شدة الى حمل السلاح ، وكان بوسعهم أن يعودوا

على جناح السرعة ، بيد أن التضاريس الصعبة كانت تحول دون التقدم السريع ، ولم يكن بوسع الرجال أن يتحركوا ، وعلى أية حال ، فان الملك الذي كان قد ترك في المؤخرة ، في خطر مع بعض نبلائه ، حيث انه لم يكن يرافقه جنود ولا سرنجتيه(١٨٧) من حملة الاقواس(لأنه لم يعد نفسه لعبور الممر ، حيث كان توجب عليه عبوره في اليوم التالي ، وفق الاتفاق الموضوع) اندفع غير مبال بحياته ، رغبة منه في إعتاق الحشد الذي كان يتذوق طعم الموت ، اندفع الى وسط جند المؤخرة ، وتدخل بشجاعة في المذبحة التي كان يتعرض لها قلب قواته ، وحمل بكل جرأة وبسالة على « الكفرة » الذين كانوا يفوقونه عددا بمائة مرة ، والذين كان الموقع قد ساعدهم الى حد كبير ، لأنه مامن حصان كان قادرا على الوقوف والتحمل ، وهكذا فقد أضعف الهجوم البطيء اندفاع الفرسان ، فجاءت طعناتهم غير مجدية وغير قادرة على جرح الأعداء ولهذا وقف رجالنا على المنحدر المنزلق يهددون العدو ، ويلوحون ضده برماحهم بما أوتوا من قدرة ، لكن بدون الاستعانة بقوى خيولهم(١٨٨) ، واخذ التركمان من بين الأشجار والملجأ الصخري الآمن يقذفون بسهامهم ، ومع ذلك تمكن رجال الحشد من الفرار بمساعي الفرسان ، وهم يحملون امتعتهم معهم ، أو وهم يقودون الحيوانات ، معرضين الملك ورفاقه للموت بموقفهم هذا .

وأن يموت النبلاء ، كيما يعيش خدمهم ، هو حدث بحد ذاته يدعو للنحيب ، لو لم يكن سيد الكل قد ضرب مثلا بذاته على ذلك ، وهكذا فقد ذبلت زهور فرنسا قبل ان تثمر في دمشق(١٨٩) ، وانني اذ اقول ذلك لاأستطيع ان اكفكف الدموع ، بل اشعر بالأسى يكويني من اعماق القلب ، ففيما يتعلق بهذه المسأة يمكن لذي العقل الرصين أن يريح نفسه ويواسيها ، بأن هذا المثل الذي ضربوه وماسبقه من أمثلة عن حماسهم سيعيش في الدنيا ، وأن موتهم محا خطاياهم بالايمان المتقد ، وبذلك أكسبهم تاج الشهادة ، لقد حاربوا حقا ، ولم يمت واحد منهم دون ان ينتقم لنفسه ، فلقد قام كل واحد

منهم بتكديس الجثث من حوله ، ومـــع ذلك لم يتناقص عدد المغيرين لأنهم كانوا قد جندوا من قـطيع كبير ، وقـام التـــركمان بقتــــل الخيول التي كانت ضرورية من أجل حمل الدروع الثقيلة ، مع أنهـــا كانت آنئذ غير قــــادرة على الجـــــري ، وهـــــكذا أصــــبح (فرسان) الفرنج الذين يرتـدون الدروع يسـيرون مشـيا على الأقدام تحت سيطرة العدو وضغطه الكثيف ، كما لو أنهم غرقوا في البحر ، وقد تفرق كل واحد منهم عن الآخـــر ، وأخـذوا يلفـظون أنفاسهم من أجسادهم العزلاء ، وفقـد الملك أثناء هـذا الاشـتباك حـرسه الملكي الضـئيل ، لكنه بعـزيمته وشــجاعته وعون الرب له ، تسلق صخرة ، معتمدا على جذور بعض الأشجار التي وفـرها الرب لبقائه حيا ، وتسلق الأعداء خلفـه بغية القـاء القبض عليه ، وصبوا وابل سهامهم عليه بيد أن درعه حماه ـ بمعونة الرب ـ من تلك السهام ، ولكي يقي نفسه شر الوقوع في الأسر ، دافـع بسـيفه الملطخ بالدماء ، فضرب به الأعناق وقطع رؤوس وايدي العديد مـن خصومه ، وبمـــــا انهـــــم لم يعـــــرفوه ، وشـــــعروا بأنه من العسير عليهم أن يأسروه ، فضلا عن خشيتهم من هجـوم مباغت ، تراجع الأعداء لجمع الغنائم قبل حلول الظلام (١٩٠)

نهاية الكتاب السادس